لَكُنتُ أُخبرتك

ميّاس وليد عرفه

الصفحة الشخصية للكاتبة على موقع :Facebook
https://www.facebook.com/mayas.walid.9

الفهرس

- **الإهداء** ٠٦
- **المُقدِّمة** ٠٨

لَو أنَّ نُجومَ السماءِ تنطِق ! ٠٧
لَكُنتُ أخبرتُكِ ١١
حُب من النَّظرةِ الأولى ١٣
مولودي الجديد ١٥
أحبَبتُكِ بعد فواتِ الأوان ١٩
جاءَت الحربُ وفرَّقَتنا جميعاً ٢٤
غُربة شتاء ٣٣
عَبرَ شاشة التِّلفاز ٣٦
فَكِّر بِغَيرِك ٤٥
صباح الخير أيها العالم الصامت! ٥٤
مهزلة العالم ٥٥
أوجعتُموني يا عرب ٥٧
مِسكينٌ هذا العالم ٥٩
غيمة مُضادة للحروب ٦١
لا تَدَعينا لِلنسيان ٦٢
لو أنها تُمطِرُ شوكولا! ٦٥
فضولُ مجانين ٦٧
ونحنُ الماضونَ بِلا وِجهةٍ أو هدف ٦٩
سأرقُصُ على قيدِ الحرية ٧١
عالم خاص بي ٧٢
الأزرقُ لون الحب ٧٣
الأحلام حكاية أخرى ٧٤
لِلصباحِ أحكي! ٧٥
ما زِلتُ صغيرةً لم أكبر ٧٦

حديثٌ مع الذات ٧٧
اعتِذار ٧٨
كلِمة واحدة ٧٩
ذات غربة ٨٠
خربشات ٨١
صدفة ٨٢
عالم اللا مبالاة ٨٣
الكتابة أنا! ٨٤
تجربة ٨٦
تساؤلاتٌ في اللا وعي، خوف ٨٧
تغيَّرتُ عني ٨٨
اليوم عيد! ٨٩
مِفتاح الخروج ٩٠
حِوار مع ذاتي ٩١
طائر لا يطير! ٩٢
لا تيأسي!، صمت، سرابُ غربة ٩٣
القصيدة اللا موجودة ٩٤
حُلُمًا ذابِلًا، بخيالي ٩٥
أقاوِيل ٩٦
قِنديلُ أمل ٩٧
قَطفةُ أملٍ لذيذ ٩٩
مَرايا وعيونٌ مُخادِعة ١٠٠
أوكسيجيني الخاص بي ١٠٢
أهداني القدرُ وطنًا ١٠٤
غيمة، تسليم، مفتاحُ صول ١٠٦
بكَ أنت، جوف الليل ١٠٧
على غيرِ العادة ١٠٨
ثَرثَرةُ الصباح ١١٠

يا صديقتي، فراشةٌ مبتورة الجناحين، شرنقة..... ١١١
كلمة في غير موضِعِها ١١٢
فائضُ أحلام، إصرار ١١٣
خواطر وطن ١١٤
ستُشرِقين يا دمشق ١١٥
وطن السلام ١١٦
أينك يا وطن الياسمين ١١٧
كأني لستُ حيًّا! ١١٨
حنين ١١٩
وطنٌ مكسور ١٢٠
دمشقية أنا، ينقصُني روح ١٢١
لِدِمشق ١٢٢
حكاية شتاء ١٢٣
حكاية طفلة ١٢٤
صُداع حائر ١٢٧
هي أمي ١٢٩
حِضنُ أمك ١٣٠
لكِ أمي ١٣١
ماذا لو كنتُ أمي ١٣٢
لماذا نكتب، لأني بالكتابة أحيا ١٣٤
ظِل، لحنُ أمل ١٣٥
أن تكون مميزا يعني أن تكون مُلهِمًا ١٣٦
الكتابة حياة ١٣٨
الحِكمةُ ضالتي ١٣٩
سأُشرِقُ يومًا ١٤١

الإهداء

إلى وطنٍ غُرِّبتُ عنه بإرادة حربٍ شرسة

فرَّقت، وخرَّبَت، ودمَّرَت، وألغَت جميع القوانين الآمنة التي كنَّا نتقيَّد بها،

ونفَتنا إلى غُربةٍ فقيرةٍ من أيَّ شيءٍ يدعو إلى السعادة

إلى كل من رمقني بتلك النظرة التي توحي بأني غريبة عنهم!

شكرا لكم

نظراتكم وهمساتكم المُغطَّاة بِكَمٍّ لا بأس به من الشفقةِ

والاستخفاف والتّقليل من الشَّأن، هي من أوصلتني إلى حيثُ أنا الآن

"على طريق الصعود نحو النجوم"

إلى أمي و أبي وإخوتي وجميع أصدقائي المُغتربين داخل وخارج الوطن

المقدمة

لم تكُن كلمة الغربة عن الوطن في قاموسي يوماً،

لم أظنَّ يومًا أنها ستكون حقيقةً ولو لِلحظة!

فبعد أن تغَلغَلتُ في سوريَّتي وعرفتُها

بعد أن عشِقتها و تعلَّقتُ بها

فجأةً قرَّر القدر!

ورحَّبت الغربة بالقرار

فجأةً اختُطِفتُ من وطني كما اختُطِف آخرون كُثُر مثلي

نَعيش على الآمال والأمنيات بأن نعود يوماً

إلى أرض السَّلام، حيثُ تقبع روحي هناك!

لو كنتِ موجودةً، لكنتُ أخبرتكِ ما فعلته بي الغربة وبأبناء الوطن!

ولأنكِ لستِ موجودةً سأكتب.

لو أنَّ نجوم السماء تنطِق!

كنتُ أقضي معظم وقتي على شرفتي غارقةً في تأمُّل حارتي حتى أني حفظتُها عن ظهر قلب، وكأني كنتُ أعلم بأني يوماً لن أراها، كأني كنتُ أشعر بأنَّ رحيلاً سيحدثُ و يقلِب كلَّ شيء.

الآن وقد أغرقتني الغربة بعيدًا عن الوطن، أذكُرها بِنسماتِها اللطيفة التي كانت تُداعِب وجنَتَيَّ كلَّ صباح، بِأشجار الزَّيتون في تلكَ الحديقةِ الصَّغيرة التي أُطِلُّ عليها كلَّ صباح وكلَّ ليلة.

بِياسمينةٍ كانت تُعَرِّشُ على أحدِ الجدران فتَبعَث عبقَها بلسماً يُغطِّي جميع آلامي الصغيرة ويُشفيها، بِمبانيها البسيطة التي أذكُر نوافِذها وجميع سكَّانِها، بِالمارَّة الذين يعطونها شيئاً من الحياة بِذهابِهم وإيابِهم منها، بِسُكَّانها المُختلِفين، منهم المزعجين وبالرغم من إزعاجهم الدائم كانوا يُعطونها شيئاً من التَّميُّز والقِصص الدراميَّة في كلِّ يوم، ومنهم الهادئين الذين لا تعرف سوى وجوههم.

أغوصُ بذاكرتي، فلا شيء أفعله في غربةٍ قيَّدت حياتي وحرمتني أحلامي وآلامي إلا العيش في الذكريات فمعها أشعر أني على قيد الحياة، أذكُر جارنا العجوز الذي كان يجلس في دكانه كلَّ النهار يقرأ في قرآنه، كانت الطمأنينة تحوطني لِمجرد رؤيتِه في كلِّ يوم على نفس جلسَته والقرآن أمامه.

كانت السعادة تغمرني كلما بدأتُ صباحاتي بصوته العذب المُنبَعث من شرفته يرتلُ قرآنه وينشرفي القلب أملاً جديداً، وسكينةً لطيفة.

لم أنسَ دهشتي اللذيذة حينما علِمتُ بأنه هو نفسُه من يؤَذِّن لِلصلاة في كل يومٍ خمسَ مرَّات، اعتدتُ صوتَه، اعتَدتُ أن أُقيم كلَّ صلاةٍ بعد سماعِ صوته.

أفتَقِده كثيراً في غُربتي!

أذكرمرَّةً أني لاحظتُ اختلاف صوت المؤذن، لم يكن صوت جارنا الطيب!

شعرتُ بالخوف، وتمنَّيتُ لو أني استطعتُ أن أدُقَّ بابه لِأطمئنَّ ما إذا كان ذاكَ الرجلُ الطيِّبُ بخير!

وكأنَّ الله استجاب لأُمنيَتي السِّرية، ففي إحدى زياراتي لِلطبيب من أجل مُتابعة حالتي الصحيَّة، تصادَفتُ به في غرفة الانتظار، كان ابنُه يُحرِّك له قدَمَه وكأنَّها شُلَّت!

أو ربما كان تعباً مفاجئاً لم يستطِع إثرَهُ تحريكَ قدمه أو المشيَ عليها.

حزِنتُ كثيراً لِحاله ودعوتُ الله كثيراً بأن يشفيَه ويُعيد إليه عافيته.

بعدَ فترةٍ من ذاكَ اللِقاء عاد صوته المطمئِنُ يؤذِّن كالسابق، كانت سعادتي تلك اللحظة لا توصف، لقد شُفيَ من آلامه وأخيراً الحمد لله.

في الحقيقة كنتُ أجدُ في رؤيتِه أملاً يمدُّني بالقوَّةِ أحياناً، وبالفرحِ في أحيانٍ أخرى.

وبِصوتِه وهو يؤذِّن وقاراً وهيبةً تأخذاني لِبعيدٍ حيثُ الخُشوع والطمأنينة.

اليوم ومن عمق ألمي ووحشتي أحتاجُ لِصوته حتى أشعرَ بِذاكَ الإحساس القديم، مازال صوتُ آذانِه يرِنُّ في أذني ولكني أفتقِدُ شعوري بالطَّمأنينةِ ذاتها.

بعد قُرابةِ بضعة أعوامٍ من رحيلي عن الوطن وصلني خبرٌ هزَّ قلبي وأثار فيه رعشةَ ألمٍ وحسرة، لقد احتضن التراب جسده بعد حزنٍ طويلٍ على ابنه الذي اعتُقِل واختفى فجأةً ولم يُعرَف عنه شيئًا!

رحِمه الله وجعل مثواه الجنة، سيبقى ذكرى لطيفة ألجأ إليها كلما حاصرتني الوحدة بسوداويَّتها.

تأخذني ذاكرتي لِدعَوات امرأة عجوزٍ ذات قلبٍ أبيض كلَّما مررتَ بها، كان أمطرتني بأجملها وألطفها وعيناها تلمعان بهجةً وسرورًا، كنتُ أشعر وكأنَّ قلبي يتراقصُ مع توافُد تلك الدعواتِ إليه لِتنشُر فيه سعادة وفرحاً لذيذَين.

أفتقدُ المرور أمام تلك الخالة ولو لِمرةٍ واحدة فأنا بحاجةٍ لِدعواتِها الصادقة، ولِعينَيها اللتين تقطرانِ محبةً وأمانًا.

بعض البشر نلتقيهم مرةً في مكانٍ واحدٍ وإذا ما طالت يدُ الغربة أحدنا يستحيل إيجادُ نُسَخٍ مُطابقة لهم، لأن صفة الندرة تلتصق بهم ولا تناسب سواهم!

لم تكُن شرفتي مُجرَّد شرفةٍ تُطِلُّ على شارعٍ يتوسطه حديقة صغيرة وعلى جانِبَيها مبانٍ فقط ، بل كانت شرفة أحلامي وحياتي ، مُتنفَّسي من كلِّ الضجيج الذي يُحيطُ بِأفكاري.
كنتُ أهربُ من مشاكِلي ليلاً إليها وأُحدِّثَ نجومَ السماء ، وشجرة الزَّيتون وتلكَ الياسمينة، أصدقائي الدائمين.
كانت أغنياتي تعانق الليل فيسمعُها الأصدقاء والمباني والحارة الهادِئة والخالية من كلِّ صوتٍ سِوى صوتي وقهقهاتٍ بعيدةٍ من تلك الشُّرفة المُقابِلة لِشرفتي.
لو أنَّ نجومَ السماءِ تنطِق لسَرَدَت قصص آلامي وأحزاني، قصص أغنياتي وأسراري
حيثُ كانت المستمع الوحيد لحكاياتي، ومن حُسنِ حظي أنها لا تنطِق!
فكم من الأسرار خبَّأتُها عندها، وكم من الأحاديث سَرَدتُ لها؟

كانت النجوم صديقتي الوحيدة التي تسمعُني بإصغاءٍ دون كللٍ أو ملل، كما أنها تستمِعُ لِأدق التفاصيل تماماً كما تسمعني أمي وتُصغي لي دوماً.

كانَت هي أول من أفصَحتُ لها عن رغبتي لِأكون كاتِبة.

لطالما قرأتُ لها خواطِر كتبتُها وكنتُ أشعر أنَّها تمدُّني بالقوة لِأكتُب أكثر، فتلمع لِتُشعِرني بأني قد اخترتُ الطريق الصحيح، كثيراً ما أخبرتني بأنَّ اسمي سيلمع كالذهب في عالمِ الأُدباء.

تلكَ الجملة التي كلما ردَّدتُها ازداد شعوري بالاعتزاز والفخر وبحجمِ الحُلُم الذي أودُّ تحقيقه.

لِيساعدني الله على بُلوغِ الطريق وتحقيق الحلم.

في غُربتي اختلفَت النجوم، وكأنَّ لِكلِّ بلدٍ نجومه!

النجوم هنا منطفئة وجافة بِجفاف المنطِقة حيثُ أني ولِوهلةٍ ظننتُ بأنَّه ليسَ ثمَّة نجوم هنا!

ظننتُ بأني أتوهَّم وجود نجومٍ في هذه السماء الغريبة فأمعَنتُ النَّظر وتأمُّل السماء..

يوجد هنا نجوم!

لكنها ليست كنجوم وطني

هي لا تُشِعُّ حباً لي، ولا شوقاً لِسماعِ أحاديثي.

لم تبتسِم لي حتى!

ذات مرَّةٍ حاولتُ أن أُغنِّي لها كدعوةٍ لِعقدِ صداقةٍ جديدة، لكنها لم تتجاوب مع أغنيتي.

نجومي كانت تلمع لِمجرَّد سماعِ صوتي

لم أجد شيئاً يُعينُني على الغُربةِ ولا حتى النجوم!

كلٌّ شيءٍ مُختلِفٌ هنا

كل شيء لا طعمَ له

على عكسِ كلِّ شيءٍ موجودٍ في وطني.

لكُنتُ أخبَرتُك

جدَّتي..

رحِمَكِ الله يا جدَّتي..

ليتَ الأيام تعودُ بي إلى الوراء، حيثُ كنتِ تُجلِسينَني أمامكِ وتقومي بتَسريح شعريَ الطَّويل بيدَين تقطُران حناناً ولُطفاً، لم تُحِبِّي أبداً تسريح شعري بفرشاة كما اعتدتُ أن أفعل، بل بمِشطٍ كعادتكِ القديمة تماماً كما كنتِ تُسرِّحين شعركِ وشعر أمي في صغرِها.

ليت الأيام تعود بي إلى الوراء حتى أستمِع لِأحاديثكِ البسيطةِ المليئةِ بالحبِّ والحنان، أحِنُّ لِسماع دعواتكِ التي تقولينها لي كلَّما رأيتني..

لِصَوتِكِ عذوبة تسقُط في القلب لِتجعَله يستكين فيستقِرَّ حبُّكِ داخل حناياه..

ليتني أستطيع الرجوع لِذاك الزمن الذي كنتِ تأتينا فيه صباحاً مُحضِرةً طعامكِ الذي قمتِ بطهوه ولم تستطيعي تناوُله وحدكِ بدوننا..

أشتاق لِنكهة طعامكِ اللذيدة التي تملكُ نكهة بساطتكِ التي لطالما أحببتُها..

أتمى لو كان بِمقدوري أن أُحدِّثكِ، ثمَّة الكثير من الأشياءِ التي أتمنى لو أنَّ باستِطاعتي أن أُخبِركِ بها..

لكُنتُ أخبرتُكِ عمَّا فعله أولئك المجرمون بأرضِنا..

وعمَّا فعله أبناء الوطن جميعاً!

لكنتُ أخبرتُكِ عن غربةٍ لعينةٍ رمت بنا خارِج الوطن، وفي كلِّ مرةٍ ترمَقُنا بنظرة استهزاءٍ خبيثة.

لكنتُ أخبرتُكِ عمَّا فعَلَتهُ الغربة بي، عن أصدِقائي الذين حُرِمتُ منهم، وعن أحلامي التي دفنتُها بعيداً قبل أن أستقِلَّ طائرة الرحيل، عن آلامي التي أبكَتني كُلَّما زادت ولم أستطِع فعلَ شيءٍ لها هنا.

اشتقتُ لِمُحاولاتِكِ في انقاذي من ذاك السجن الذي قُدِّر لي بأن أعيشه منذ طفولتي، كنتُ أرى في عينَيكِ رغبةً في انتشالي من آلامي ومن ضعفي..

لكنتُ أخبرتُكِ عن تلك المرأة التي لم تكن سوى وهمٍ مُختبئٍ خلف اسمٍ مكتوبٍ على هويَّتي وأوراقي الثبوتيَّة، والآن وبعد عقيدَين ونصفٍ من عمري ظهرَت فجأةً في حياتي مع أشخاصٍ آخرين رغبةً منهم في قلب الحياة التي اعتدتُ عَيشها، وأدمنتُها، ولا أحبُّ تغيير شيءٍ واحدٍ فيه.

ليتَكِ تستطيعينَ احتضاني وأخذي بعيداً عن كلِّ هذه الفوضى!

لكنه الموت!

أخذكِ سريعاً وضمَّكِ تحت تراب قبركِ في الوطن.

أحسِد أولئك الذين يتوسَّدون تراب الوطن في قبورهم، على الأقل ارتاحوا من رؤيةِ الدَّمار والموتِ بأشنع الطرق وأبشعِها.

ارتاحوا من غلاءٍ فظيع وفقرٍ يتملَّك جميع من في الوطن هناك وسط الحروب، حيثُ نجمتي التي انطفأت وهوَت ولم يعُد لها وجود.

ارتاحوا من رؤية الأطفال الذين يموتون جوعاً وعطشاً وبرداً وفقراً ويُتماً وخوفاً.

أطفالٌ لم تكبُر إلاَّ على صوت الرصاصِ والمدافع، ولون الدّم، ورائحةِ الموت.

ارتاحوا من مُقابلةِ غُربةٍ هوجاء تقتُل النَّفس قهراً وذُلاً، وتُلَوِّع القلوب شوقاً وحنيناً.

اشتقتُ لكِ جدَّتي..

لو أنني أستطيعُ إخباركِ بأني أحتاجُكِ بشدَّة، أحتاج يديكِ الحنونتَين، وقلبكِ الطَّاهر، ودعواتكِ الكثيرة واللحوحة لي.

في كلِّ مرة أذكركِ أتأمَّل ملامح أمي التي تشبهُ ملامِحكِ، وأدعو الله بأن يُمطِر عليكِ في قبرِكِ رحمةً ومغفِرةً، وأن يجعل قبركِ روضةً من رياضِ الجنَّة.

في كلِّ مرَّةٍ أشتاقُك أحتَضِنُ أمي، ابنتَكِ التي أورَثتِها طيبةً تفوقُ طيبةَ البشرِ جميعاً، وحناناً يغمُرُ الكون بأسره، ووجهاً جميلاً بملامِح ملائكيَّة.

ومن أجملُ وأطيبُ وأحنُّ من أمي؟
رحِمَكِ الله جدتي.

حُبٌّ منَ النَّظرة الأولى

مع أنَّني قضَيتُ طفولتي في ذاتِ المكانِ الذي تغرَّبتُ إليه.

إلاَّ أنَّ شيئاً منذُ ذلك الوقتِ يُخبرني بأنه ليس مكاني، يُشعِرني بِعدمِ الانتِماء إليه.

مع أنني تعلَّمتُ الكلام والمشيَ فيه، وتغلَّبتُ على مخاوفي الصغيرة في أرضه، وتعرَّفتُ أولى الحروف والأرقام، ورسمتُ الكلِماتِ والأشجارِ والبيوت الطُّفوليَّة والشُّموس المُزركشة، وانخرَطتُ مع الأطفال في سنواتي الأولى.

تعلَّمتُ مناهِجه ولا أُنكِر بأنني أحببتُ أشخاصاً ينتمون إليه وعلى بِقاعِه، مُدرّساتي وصديقاتي اللاَّتي كُنَّ يدرُسنَ معي.

إلاَّ أنَّ شغفي بالكتابة لم أكتشفه فيه، لم أعلَم بأني سأُريد يوماً أن أكون كاتبة وأنا أتنفَّس من هواه!

ربما لم تكُن تلك الفكرة وارِدة بين أحلامي ورغباتي، رغم كل ذلك لم أشعر يوماً بالانتماء لهذا المكان.

أوَّل مرَّة رحتُ فيها لِلوطن ظننتُ بِأني أعيشُ حلماً جميلاً داخل حافلة!

عند أول ظهورٍ لِلأراضي الزراعية التي تخُصّ وطني تراقَصَ قلبي فرحاً، لم أكُن قد رأيتُ جمالاً كجمالِه قط، شعَرتُ بالشيء المفقودِ والذي كنتُ أبحثُ عنه في الغربة.
الانتماء!
هو شعورٌ ساحِرُ الروعة يملأُ القلب فرحاً وأماناً واطمئناناً
شعورٌ لذيذٌ تذوَّقتُه نهاية فترة طفولتي

كُلَّما اقتربَت الحافِلة أكثر من الوطن وتوغَّلتُ فيه كانَ أبي يُحدِّثنا عن مزارِع درعا التي كانت على جانبَي الطريق، بسحرها وجمالها احتلَّت مُخيّلتي كأجمل صورةٍ ألتقِطُها لِأول مرة.

دائماً "أوَّل مرَّة" تكون كغيرها من المرَّات، بِذهولِها الأول، بِدهشتِها، بالكلمات التي تخرج أولَ مرَّة من شِدَّة الذهولِ بها، وبِكل تفاصيلِها.

أوَّل مرَّة تأتي دائماً بِسحرٍ مُغاير لِكلِّ المرَّات!

مع توَغُّلِنا في أرضِ الوطن كان أبي وأمي يُحدِّثانا عن كلِّ شيءٍ نراه.

حتى وصلنا إلى دمشق!

مازال لِقائي الأوَّل بها قابِعاً في ذاكِرتي كلِعبةٍ لا تُغادِر صغيرتها.

كم هي بهيَّةٌ ساحرةٌ بجمالِها، صَدَقَ من قال بِأنها تسرِق قلوبَ العُشَّاق من اللحظةِ الأولى لِلقاء الأوَّل، وها هي سرقت قلبي الصَّغير، وعيناياَ المشدوهتانِ بها لِلوهلةِ الأولى مِن رؤيتِها.

انظروا يا أبنائي، إنه نهر بردى!

" قالها أبي "

يا إلهي ما أجملَه!

وكأنَّ الجنة أُقيمَت في دمشق.

فجمالُ مبانيها الضّخمة مِنها والبسيطة يأخذ الألباب، سُكَّانها بأشكالهم وألوانهم ، بِبساطتهم، وبِمكانتهم العالية، بِأديانِهم ومُعتقداتهم، باختلافهم يثيرون الدهشة والانتباه بإعجاب.

ما أروعكِ دمشقِي، "دمشق الحب" وما أروعَ كلَّ ذرَّةٍ فيكِ.

لقد وقعتُ في حبّك من النَّظرةِ الأولى.

أهُناكَ طفلةٌ تعلمُ شيئاً عن الوقوعِ في الحبِّ منَ النَّظرة الأولى؟

كنتُ أنا، أنا الطفلةُ التي وقعَت بحبِّ دمشق من النَّظرة الأولى، بل من الوهلة الأولى التي تنفست فيها أولى ذرات هواها!

كنتُ أنا الطِّفلة التي ذابَت عِشقاً بين شوارِعِها، أبنِيَتها، حاراتِها، دكاكينِها وأسواقِها، حدائقِها وأشجارِها،

حتى أني ذُبتُ عشقاً بِهواها فأصبَحتُ المُتيَّمة الصَّغيرة لها، والتي مع كلِّ سنةٍ جديدةٍ تُضافُ إلى عُمرِها يكبُر عِشقُها وتزيدُ تَيماً بِدمشقَ لا سِواها.

لو أنني كنتُ أعلم حينها بأني لم أكُن سوى مشروع كاتِبة ستكتشِفُ ذاتها قريباً، لو كنتُ أعلمُ كيفَ سأتلاعبُ بالكلِمات وأُحوّلها وأرتِّبها كيفما شئت، لو أنني كنتُ أعلم كيفَ أكتُب قصيدةً وقتها، لَكتبتُ الكثير عن حبِّي وعشقي لها!

لو كنتُ أعلمُ حينها بِأنني تحوَّلتُ من غريبةٍ إلى عاشِقةٍ لِدمشقَ والكلِمات لَكوَّنتُ من حروفِ العشق ما لم يُكتَب حينها، ولكني لم أكُن سوى طفلةٍ مذهولةٍ عرفَت لِتوّها ما معنى "الانتماء"!

حين وصلنا إلى مدينتنا في الرّيف الدمشقي "التَّل"

زدتُ ذهولًا بِجمالِها وروعةِ جِبالها وأشجارِها ومبانيها، على الرغم من أنها ريف لكنها كمدينةٍ بحقيقتِها!

كلُّ مكانٍ فيكِ سوريَّتي يُعشَق،

وكلُّ شجرةِ ليمونٍ وزيتونٍ فيكِ سوريَّتي تُعشَق،

وكلُّ نهرٍ جارٍ أو طيرٍ مُحلِّق فيكِ سوريَّتي يُعشَق،

أهُناك ذرَّة فيكِ لا تُعشَق؟

مَولوديَ الجديد

كانت مدينتي هادئة، جميع سكانِها يعرِفون بعضهم البعض وجميعهم لهم ملامِح مُتشابهة وابتِسامة جميلة لم أرَ مثلها في غربتي.

في الغربة كلُّ شيء جاف، حتى الابتسامة!

تكون جافة بِلا معنى.

وكأني وقتها تعرَّفتُ على شيءٍ جديدٍ قاسٍ كنتُ أعيشه دون أن أشعر به، وكأني لحظتها علِمتُ بوجود عدوةٍ لدودةٍ لي كانت تعيشُني في الخفاء!

تلك السارِقة المحترفة، والمغرورة التي كانت تخدعُ طفولتي وبراءتها، والتي سترافق دربي القادِم مجدّداً فيما سيأتي.

الغربة!

حينها ندِمتُ على طفولةٍ سرقَتها الغربة بألعابها التي لم أستمتِع بها سِوى داخل أسوار المنزل، ندِمتُ على طفولةٍ لم تحفِر بذاكِرتي سوى صحراءٍ قاحِلةٍ جافةٍ ذاتَ شمسٍ حارقةٍ لا ترحم.

ندِمتُ على عمرٍ ضاع من عمري لم أنعَم به بجنة الدنيا، "سوريتي"

جنتي، أجمل بِقاعِ الأرض وبلد السلام.

صار صُنع ذكريات طفوليَّةٍ جديدةٍ لي على أرض السلام شغلي الشاغل.

بِتُّ أجوبُ في طرقات المدينة التي كنتُ أجهلها أنا وإخوتي معاً.

وعلى الشرفة التي كانت بِحدِّ ذاتِها مسكني وملاذي، ذكرياتي ومنشأ أحلامي، حيثُ عقدتُ أولى صداقاتي على أرض الوطن، "مع نجومه"

فيها قرَّرتُ أن أكون يوماً نجمة متلألِئةً تنشر حباً وأملاً وحياة

فيها عشِقتُ القهوة وصوتَ فيروز والكلِمات

وعليها نشأت أولى حروفي

"مِن شرفة منزلي"

أكملتُ دراستي وتعرَّفت على أصدِقاء جدُد لكني وجدتُ صُعوبةً في التعامُلِ معهم لِلوهلة الأولى بسبب الخوف الذي أورَثَتني إياه غربتي الأولى

كان جميع أصدِقائي في المدرسة الإعدادية بدايةً من الأولاد، فالوقت الأطول من دوامي في المدرسة حينذاك كنتُ أقضيه معهم، كنتُ أحاول عيش طفولتي التي لم أعِشها في الغربة، وكنتُ أحاول رسم ذكرياتٍ لي قبل أن أتعدَّى مرحلة الطفولة

لِلأسف، لم أجِد طفولتي مع الفتيات فأحاديثُهنَّ لم تكُن تُغريني أبداً، أو ربما لم تكن تُثير رغباتي الطفولية، وربما كنَّ يتجنَّبن جلوسي معهن بسبب هيئتي التي لم تَرُق لهن!

إذ أنَّ هيئتي ووضعي الذي كنتُ أُعاني منه لم يكُ يتناسَب مع أحاديثهن التي طغَت عليها ملامح المراهقة!

على الرغم من أني كنتُ أكبرهنَّ بعام ولكنَّ طفولتي كانت هي الطاغي الوحيد على تصرفاتي، ولهذا السبب كنتُ أجد متعتي مع الأولاد!

كنتُ ألعبُ وأقضي الوقت معهم حتى أني اكتسَبتُ بعضاً من تصرُّفاتهم وطِباعهم وطريقة كلامهم ولهجتهم الريفية، كنتُ صِبيانِيَّةً بعض الشيء حينها.

أحياناً كنتُ أشعر بأني سأكون سعيدةً أكثر لو كنتُ صبيَّاً، فمظهري وهيئتي لم يكونا يليقان بفتاة مثلهن!

ما أثار غرابتي في تلك الفترة أن الصبيان تقبَّلوني كما أنا، باختلافي، بِضعفي، بِكلِّ ما فيَّ لِأكون صديقةً لهم،

على عكس الفتيات اللاتي لم أشعر أبداً بأنهم تقبَّلوني ولو أنهن كنَّ يُجامِلنني كثيراً، ويرمَقنني بِنظراتِ الشفقة من بعيد.

كم أمقُتُ تلك النظرات!

وأتمنى لو أنَّ باستِطاعتي اقتِلاعها من كلِّ عينٍ ترمي بها علي!

هم لا يشعرون بِكمِّ الألمِ الهائل الذي ينتابُني حين ألمح تلك النظرة، ولو علِموا بآلامي الناجِمة عنها لاقتَلَعوها بِأنفسهم، لو شعروا بها لعرفوا معنى أن يموت الواحد قهرًا مئات المرات!

أربعُ سنوات ولم أُحادِث أو ألعب وأتشارك المواضيع سوى مع صِبية، لم يفهمني سِواهم حينها، أو أنَّ طفولتي وجدتُها معهم ورِفقتهم.

حقاً كانوا أصدِقاء حقيقيين، ما زِلتُ أحتفِظ بذكرياتهم وأسمائهم وأشكالهم الطفولية إلى الآن!

وكلما ذكرتهم لا يسعني سوى أن أدعوا لهم بالسعادة.

هنا عرفتُ معنًا آخر للغربة، غربة الإختلاف والرفض، غربة الاستِهجان والتعجُّبِ في كل مرةٍ تُرى فيها، غربة النظرات المُشفِقة، ووجودك اللامرئي بأحيانٍ كثيرة!

كبُرتُ وتخطَّيتُ مرحلة الإعدادية وعليَّ الانتقال للمرحلة الثانوية، هناك كانت الحياة وكل شيءٍ مختلِفًا

لم يكُن هُناك أيًّا من أصدقائي الصِبيةُ الذين اعتدتُ عليهم، لم يكن ثمة أملٌ واحدٌ بسيط على وجود أحدهم، مما تسبَّب بنمو الخوف داخِلي وبداية تعريفه عن ذاته ومُتحدِّياً ضعفي يقول:
"أصبحتِ وحيدة الآن، لا أصدِقاء معكِ، فما أنتِ فاعِلة؟"

كنتُ وحيدة حقًّا، شعرتُ بِأنَّ تلكَ الثَّانوية لم تكُن سوى سجنٍ لي، لكنه بِلا قُضبان

لم يكن معي أصدِقائي، الجميع هنا غُرباء، وأنا غريبةٌ مُغتربةٌ بينهم!

كبُر الخوف داخلي وأجزمتُ بأني قادِمةٌ على مجهولٍ سيجعلني وحيدة ولمُدة ثلاث سنوات!

بدأ اليأس يتسلَّل داخِل روحي، وكأنَّ روحي كانت مرتاحةً أصلاً

لم أعُد طفلةً الآن، أظنُّ بأنِّي كبُرت حقاً، فمجتمعي لم يكن يسمحُ لفتاةٍ في مثلِ عمري أن تُصادِق شُبَّاناً!

كان عليَّ أن أحترِم قوانين مجتمعي لِذا صِرتُ أحاول تناسي حاجتي لِأصدقائي، والتفكير بطريقة لِقتلِ المخاوِف التي تنمو داخلي، والتعايُش مع الحياة الجديدة التي بانتِظاري.

خرجتُ أوّل يومٍ من دوامي في الثّانوية مُحبطة، كئيبة، ومُستسلِمة

لم أستطِع أن أحبَّ ذاك المكان!

كيف لفتاةٍ اعتادَت أن تتواجد مع أصدقاء حولها دومًا ان تبقى وحيدة الآن؟

الاختلاف بيني وبينهن كان واضِحاً، والبُعد بين أسلوبي وأسلوبهن كان شاسِعًا

لم تكن أحاديثهنَّ تُغريني، ولم تكن روحي الطفوليَّة لتتطابق مع أرواحهن الشابة، كانات أفكاري بعيدة عن أفكارهن، كنتُ أخجل منهن ومن الحديث معهن، وكنتُ أشعر في بعض الأحيان بأني لن أستطيع أن أكون مثلهن، أو أن أُصادق إحداهن، وكنتُ أخاف من هذه النقطة كثيراً.

أخاف من أني لن أستطيع الحصول على صديقة!

كانت هذه هي غربتي التي شعرتُ بها هناك، وكانت هي ذاتُها سبب ولادة كاتِبة صغيرةٍ خجولة تخُطّ حروفها وتخبئها في دفاترها.

تُخرِج أوجاعها المُتراكِمة داخلها لِتُحيلها كلِماتٍ مرتَّبة وحروفاً أنيقة على ورق، بيدَ أنها لم تكُن تمتلِكُ من الجُرأة شيئاً لِتجهر بحروفِها والكلمات!

لم يكُن أحدٌ يعلم بِوجود هذا المولود الصغير، ولم يتوقَّع أحدٌ وِلادته، بل لم يكن يتوقَّع أحدٌ وجوده يوماً على قيدِ الحياة!

كان لِشخصيَّتي الهادئة والخجولة، وربما لِتلك الابتسامة المرسومة دائماً على وجهي سببًا لِجذب الفتيات بغيةَ التعرف عليّ، أو ربما أخطأتُ تخمين ما يجذب بعضهنَّ حقاً.

ربما الفضول بمعرِفة من أكون!

أو ربما الشفقة!

لم أكُن أتوقَّع أبداً أن أُصادِق أحداً هناك.

المخاوِف والأوهام التي يوقِع بها الواحد منا نفسه تُغرِقُه في بحار من اليأس يظُنُّ بعدها أنه لن يخرج منها أبدا.

في البدايةِ تعرَّفتُ على صديقةٍ لم يجمعني بها سوى "صباح الخير ومقعدٌ مُشترك، بعدها بدَت تنمو علاقتُنا ومحبتنا مع الأحاديث التي كنا نتبادلُها كل يوم، والتشابه الذي بدا يكبُر بيننا مع كلِّ حديث"

لأتعرَّف بِأخرى اعتقدتُ بِأنها الأولى في البداية إذ أني لم أحفظ ملامحها الدقيقة التي تميزها عمَّن تشبهها "بنظري" لِيحدث موقف طريف يكون بِداية لِصداقة حميمة امتدت إلى الآن!

أصبح لديَّ صديقتان، مما يعني أن المخاوف لم تكن إلا أفكارًا ساذجةً أعطيتُها حقَّ التصرُّفِ بمشاعري، والتخمين بالأسوأ دائمًا!

مضَت الأيام وأصبح يتزايدُ رصيدي من الأصدقاء، كنتُ أنضُجُ وأتعلم كل يوم كيف أتقبل اختلافي وأحبه كما احببنه.

ولِأنَّ الوفاء مُتَأصِّلٌ داخلي لم أنسَ يومًا أصدقائي القُدامى فخطرَت لي فكرة أن أُسمي كلَّ نجمةٍ باسمِ واحدٍ منهم! كانت فكرةً طفولية بامتياز، لكنها استطاعت أن تساعدني بالاحتفاظ بهم في ذاكرتي وبين أحاديثي الليلية للنجوم. حفِظتُ اسم كلِّ نجمة، وحدَّثتُهم عن صديقاتي الجُدد، وكيف أني في كل يومٍ تزدادُ دائرة صديقاتي اتِّساعاً، وعن تمكُّني من التَّغلُّب على الخوف من الوحدة إذ أني وجدتُ صديقاً سرياً أبوح له بأسراري كلها

إنه "الكتابة، المولود الجديد الذي بدأ يتعلَّم فنَّ الحياة والتعلق بالحلم"

بدا حلمي صغيراً حينها، ولم أكن أمتلِك الجرأة حتى أُظهِره أمام الجميع

احتفظتُ به سرّاً ورُحتُ أجوب به وأتعلَّم أساليبه في الخفاء

أشغلتُ نفسي به عن الجميع، وأخفَيتُ شغفي به عنهم، ولكنَّ شيئاً ما حدث جعلني أصرُخ أمام الملأ جميعاً:

"أنا كاتِبة"!

أحببتُكِ بعد فواتِ الأوان!

كثيراً ما تخذِلنا توقُّعاتنا مهما كانَت إيجابية أم سلبية

مُبهِجة أم مُحزِنة، ممكنة كانت أم مستحيلة

علينا أن نثِق بِذاتِنا وبأنه مهما كان صعباً ما نُواجِهه، سنتخطَّاه بالإيمان والإرادة،

وبِعدم الاكتِراث لكلِّ تلك السَّلبيَّات التي يبُثُّها الآخرون مع نظراتهم أو كلماتهم أو حتى همساتهم.

بعض التجارب تنتهي بالفشل، الأهم من البكاء والإحباط وإحاطة أنفسنا بالمشاعر السلبية التي تودي بأرواحِنا إلى الإنكسار والألم، أن نتعلم منها ونكتشف مكامن القوة التي سنمتلِكها مما تعلمناه، ونتحسَّس ذلك الدرع الذي نشأ ليحمينا من الفشل بتجارب مُماثِلة.

تجرِبتي في الثَّانوية لم تكن ناجحة، كانت المرة الأولى التي أفشل بها على الصعيد الدراسي.

بل كانت بدايةً لسلسلة من الفشل فيما بعد، وبالوقت ذاته كانت مرحلةً لِولادة حلم جديد بدَّد جميع الأوهام الساذجة من خيالي.

الفشل لا يعني النهاية، بل البداية الحقيقية لانطلاقنا في سباق الحياة نحو النجوم.

تعلمتُ الكثير منها، والأهم أنّي اكتشفتُ أخيراً بأن خوفي لم يكن سوى وهم!

وهمٍ أغرَقتُ نفسي فيه، وأوهَمتُ ذاتي باستِحالة الخروج منه، بيد أن اكتِشافي أتى متأخِّراً لِلأسف!

هواجِسُنا وأحاسيسُنا تخدعُنا أحيانًا فتُعمي أعيننا عن كل ما هو جميل ومُمتع في حياتنا.

كَبُرَت دائرة صداقاتي وصغُرت معها مخاوِفي واضطِراب قلبي.

فقد كان هناك من كنَّ يُحدِّثنَني ويستمِعنَ لأحاديثي باهتمام، وهناك من كنَّ يساعدنني في فعل أمورٍ تصعُب عليّ.

ومن كُنّ يساعدنني للوصول إلى منزِلي الذي يبعد عن المدرسة مسافة بالنسبة لي كانت كبيرة.

كانت صداقتي بهنَّ تفوقُ توقُّعاتي الغبيَّة، و بِمعنى أدق تُحطِّمها جميعاً

تعلمتُ وقتها أنّ المظهر الخارجي للبشر لا يهم جميع البشر، هناك من يهمُّه الجوهر!

بالرغم من محبَّتي لِصديقاتي لم أستطِع أن أحبَّ ذاك المكان!

لم أشعر بالراحة هناك ولا حتى بالانتماء!

الانتماء، كلمة عميقة نفتقدها عندما نشعر بالغربة، وهناك كنتُ غريبة.

بعض الأماكن ترفضنا فتنشر في قلوبنا ضيقةً وشعور الغربة الذي يخنق صدورنا فيُشتِّتُ انتباهنا عن كل شيءٍ إلا البحث عن سبيلٍ للخروج.

كان همِّي الوحيد هو الخروج وبأي وسيلة، لِدرجة أني لم أكن أُتشارِك مع صديقاتي بصُنع الذكريات!

كنتُ دائمة الصمت مُنزوِية على مِقعدي ومعي قلمٌ وورقة.

أكتب فقط ، لم أعرِف وقتها لِم أكتب؟

وما ذاك الشيء الذي يجذبني كمغناطيسٍ لِأكتُب؟

حينها كانت الكتابة مولوداً صغيرا أشدَّ ما يكون حاجةً لِأمه كي ترعاه وتنتبه له، وتسقيه من حليب حنانِها واهتمامها حتى يكبر ويتطوَّر تطوُّراً صحيحاً لا اعوِجاج فيه.

كتبتُ عن كلِّ شيء صادفتُه أو سمِعت عنه أو رأيته، أخرجتُ جميع مشاعري المكبوتة داخلي، وصرختُ بِذاك الصوتِ الصامت على الأوراق!

حتى عن تلك النقطة السوداء في حياتي، المُلاصِقة لِأحلامي وأوهامي ومخاوِفي الكبيرة والمجهولة في ذات الوقت، كتبت!

كانت النقطة موجودة على شهادات امتِيازي، وجواز سفري، وفي كوابيسي اليوميَّة، لكن صاحبتها كانت مجهولةً ومخفيّةً بين طيَّاتِ الماضي البعيد.

وثمة احتمالٌ لِظهورها بِأيِّ لحظة في طرُق الأيامِ القادِمة.

لكن تساؤلاتي الدَّائمة كانت:

((بِأي وجهٍ، ولِأي سببٍ ستظهر؟

وأي وسائل ستستخدم حتى تغطي جميع ذنوبها؟

وماذا سأفعلُ أنا حينها؟

هل سأضعفُ كعادتي أم أن قوَّة خارِقة ستُسيطر عليَّ لِأواجه ما سأواجهه؟))

كتبتُ عن طفولتٍ قضيتها مع أختي

ألعابنا، أشياؤنا، أفكارنا، تصرُّفاتنا، وأحلامنا

عن رسُومنا التي غطَّت جُدران غرفتِنا، وأسرارنا التي كُنا نبوح بها لِبعضِنا البعض، وجميع الأحداث التي حصلت معنا، عن أفعالنا الشقيَّة التي قمنا بها، وعن أخطائنا البريئة التي ارتكبناها.

عن صدمتي الأولى بعمر الثامنة، تلك التي لم أستطِع استيعابها حتى الآن عندما أخبرتُ أختي بها وشهقاتي تتابع بشدة من هولِ ما عرفت!

عندها لم أستطِع البوح لِأحدٍ سواها.

لِكلٍّ منَّا شخصٌ كروحه تماماً وليس نصفها، فالنِّصف يضيع أحياناً في زحمة الواقع، وكثرة أحداثه.

كتبتُ عن أفعالِنا الجنونيَّة الممزوجة بطفولة وعفويَّة، عن محبَّتي لها، وعن خوفٍ أحتفِظ به بِداخلي

"كيف ستكون حياتي بدون أختي؟"

عن كلِّ التفاصيل الصغيرة التي أحبها بإخوتي، كتبتُ أيضا.

وعن شجاراتنا الطفولية، تلك الشِّجارات التي تُقوِّي وتُثبِّت الحب بين الإخوة بمرور الأيام.

عن أحاديثي الكثيرة بخصوص نجومي، وعن أغنياتنا المُحببة

عن الشوكولا وعن مشروبِنا المفضَّل "المته"

عن مِزاجيَّتِنا المفاجئة لاحتِساء القهوة

وعن سببِ انزعاجي من صديقتها المغرورة، وعن نظرتِها التي تلمع في عينِها حينما أُسلِّم عليها،

تِلك اللمعة التي تُنذِر حواسي بأنها تُشفِق على حالي.

وعن غضبي من أخرى صادفناها في طريقنا فلم تُسلم عليَّ وأكملَت سلامها وحديثها وتصنُّعها السخيف مع أختي، وأنا أقِف مشدوهة من غباءِ تفكيرها وقساوة قلبها، كأن لا وجود لي أمامها!

كثيراً ما كنتُ أتساءل: ما هو الشعور الذي يتملك الأشخاص عندما لا يكون لهم أي وجود أمام آخرين رغم أنهم حاضرين بكل كيانهم؟

بالمُناسبة، هل فكَّر أحدٌ يوماً أن يتخيَّل نفسه مكان إنسانٍ مريضٍ أو مختلف أيًّا كان اختلافه، قد اختار الله له حياته وقدره، ليشعر بشيءٍ مما يشعر به ذاك الشخص من ألمٍ وضيقٍ وأحاسيس لا يُمكِن وصفها إزاء نظرة شفقة واحدة، أو استِصغارٍ من قيمته أمام الآخرين؟

أخبرني والِدي يوماً بأن المريض الذي يستحق صاحبه الشفقة من الآخرين هو مريض العقلِ والتفكير، ليس مريض الجسد.

أعجبتني تلك العِبارة وصِرت أرمي بِنظرات الشفقة والاستِخفافِ على كلِّ شخصٍ يعتقد أن الظاهر هو كل ما يحتاجه لِقوِّم برأيه ما إذا كان هذا الشخص يستحق الاحترام أم لا، يستحق أن يحتفي بوجوده الآخرين أم أن التجاهل هو ما يجب أن يُقابَل به، يستحق أن يكون مرئيا أم لا وجود لِمختلفٍ بين الجميع!

ذلك الاعتقاد بحد ذاته يُعدّ ظلمًا جاهلًا لا يحمل في طياته أي لمحةٍ إنسانية عادِلة.

في البِداية كنت كثيرة البُكاء والشكوى من مثل هذه تصرُّفات ولكني استطعتُ أخيرالخروج من دوامة تفاهاتِ البشر تلك، والتركيز على فكرةٍ واحد فقط:

((ربما لا أمتلِك ما يمتلِكونه من صحة أوجمال، لكنَّهم لا يستطيعون أن يفعلوا ما أفعله أنا أو غيري ممن كان نصيبهم في الحياة أن يكونوا "مميزين" عن غيرهم من الأسوياء الأصحاء بدنًا، فنحن بإرادة الله وعونه نستطيع أن نكون مثلهم بفكرنا ومشاعرنا، لكن أصحاب التفكير المحدود الذين لا يرون إلا الظواهر من الأشياء ولا يعلمون أنَّ في الأعماق كنوزًا شتى، لن يصِلوا إليها إن لم يتم توسيع مداركهم ومدى وعيهم لفكرة الاختلاف))

كتبتُ أيضاً عن لعبتي التي أحبها والتي كانت هدية من أبي، وعن اسمِها الذي اخترته لها **"ماري"**

كثيراً ما تساءلتُ عن سبب اختياري لذاك الاسم بالذات، ربما كان اسماً لِبطلة في مسلسلِ أفلامٍ كرتونيةٍ كنتُ أحبُّه!

عن الربيع والخريف، عن الشتاء الذي أذوب فيه عِشقاً

عن المطر والمِدفأة

عن شرفتي وتلك الزيتونة الواقِفة مكانها دائماً، وعن اعتقادي بأنها واقِفة هناك من أجلي!

حتى أراها كلَّ صباحٍ خضراء صامِدة، لا يؤثر فيها برد ولا ريح.

عن تلك الياسمينة التي تفوح عبيراً نقيّاً لا يُضاهيه نقاءٌ في الدنيا، كيف لا ومنبَتُها ترابٌ طاهرٌ كترابِ الوطن.

عن وطني الذي أحبه ورغبتي بأن أجوب كل شبرٍ فيه.

بعضُ الرَّغبات تتحول إلى أحلام بعيدة المنال!

عن أمنيتي بِترك الثانوية التي تحقَّقت أخيراً ومعها حدث ما لم أتوقَّعه أبداً!

لم يكن يهمُّني حينها كيف تركتها، لم أكترِث لِلفشل الذي وقعتُ فيه، ولم أُفكرفيما سيقولونه عني لاحِقاً، لكنَّ الندم زارني بعد أن انزاح خدَرُ فرحة الخلاص المؤقت.

نُخطئ كثيراً بما نتمنَّاه أحيانا ونتمسَّك به دون أن نُدرِك أنه ربما يكون الخير بذاته لنا وبعدها ، نندم بِبساطة!

بعد أن جرَّبتُ طعم المرارة الأصلي وأُبعِدتُ قسراً عن الجميع، وعن ذاك المكان الذي كان بغيضاً بالنسبة لي حينذاك، وعن الوطن، كتبتُ اعترافاً لِصديقاتي:

"غريبة هي الحياة حقّاً

أكثر مكانٍ كرِهته وتمنَّيتُ الخروج منه في الماضي، بات أكثر مكانٍ أشتاقه اليوم!

أكثر مكانٍ بكَيتُ فيه وبسببه في الماضي، أصبح الآن من بين أكثرِ الأماكن التي أبكي من أجلِها

المكان الذي كان السجن بالنسبة لي، بات سجني الحالي أكثر ضيقاً منه بِأضعافٍ مُضاعفة

الغربة خنقَتني أكثر من اختناقي هناك!

أشتاقُكِ حقاً مدرستي، أحِنُّ لِمُدرساتي اللاَّتي لم يدخُلنَ قلبي في ذاك الوقت، ولِصديقاتي اللاَّتي أحببتهم، ولكنَّ مقتي لِلمكان الذي جمعني بهنَّ أبعدني عنهن.

أحِنُّ لِتلك التفاصيل الصَّغيرة والقليلة التي عِشتُها هناك

أشتاق لِصمتي داخلها!

لي في كل زاويةٍ من زواياها ذكرى لِصورةٍ أنشأتُها بخيالي

لي فيها مع كل صديقةٍ قابلتها محبَّة وأُلفة

لي على شرفة فصلي التي كانت تُطلُّ على الشارع أمام المدرسة، قِصصٌ رويتها وآمالٌ نسجتها وأحلام رسمتها،

وعلى ذاك الدَّرج الكبير شبه ضحِكاتٍ وكثير من الحزن والمحاولات لاجتيازه بدون مساعدةٍ من أحد!

كم تمنَّيتُ الآن لو أنَّ باستِطاعتي زيارتها ولو لِمرَّةٍ واحدة، لِأُخبر حِجارة جُدرانها وصفوفِها وساحتها الواسعة وتلك الدرجات بِأني أحبها، وأفتقِدها.

كم كنتُ حمقاء فيما مضى، لأني لم أُعطِ نفسي فرصةً لِمحبَّتِها، ولِرؤية الحرية التي لم تكن بِنظري سوى سجنٍ مُظلم!

كنتُ ساذجةً عندما أضعتُ فرصةً لِعَيشِ أجملِ لحظاتِ حياتي، وصنعِ ذكرياتٍ قد تُقوي مناعة تحمُّلِ غربةٍ أعيشها الآن!

ينتابُني شعورٌ بالندم كُلَّما سمعتُ صديقاتي يتحدثون عن ذكرياتهم هناك وأنا أصمُت وأستمع فقط تماماً كما كنتُ صامتة في الماضي.

لو يعود بي الزَّمن إلى الوراء، حيثُ كنتُ فيكِ مدرستي لَجعلتُ فترةَ العمرِ التي قضيتُها فيكِ هي الأجمل

أحبَبتُكِ بعد فواتِ الأوان، فهلاَّ سمِعتِني وسامحتِني الآن؟"

جاءت الحربُ وفرَّقَتنا جميعاً!

صدفةً كانت يوم التقَينا فامتدَّت محبَّتُنا إلى ما لا نهاية، وبقيَت صداقتُنا إلى يومِنا هذا تُحارِب البُعد والغربة وحيدةً مُتسلِّحةً بالأشواقِ والذكريات وبكثيرٍ من الدعوات لأن نجتمع يوماً على أرض الوطن.

كان يوماً ماطِراً بارداً يوم التقَينا، وقد كنتُ يومها مُنهكة ومتعبة أكاد أقع من شدَّة الألم والمرض

وكانت من أوائلِ المُستَقبِلين لي أمام بابِ المعهد الذي كنا ندرسُ فيه على الرغم من عدم معرِفتِها بي

"كنتُ مُضطرةً لِلذهاب حينها رغم مرضي!"

وكأنَّ المرض أصابني لِيُعرِّفني بها، مدينةٌ أنا له بِلقائها

لِأولِ مرَّة أشعر بأنَّ القدر يحبُّني، فقد كانت هديَّته الأغلى لي!

صديقتي، ابتسامة زرعتها الحياة في طريقي وغرَّبَتني عنها بعدها

قالت لي بعد يومٍ من ذاك اللِّقاء الغريب بأنها كانت مُتشوِّقةً لِمعرِفتي منذ مدَّةٍ ليست بالبعيدة!

كنتُ على ثقةٍ تامةٍ بأننا سنبقى صديقتَين للأبد، وبأننا مهما افترقنا سيبقى الحب يجمعنا، والوفاء يلفُّنا، والحنين يُسيطر علينا.

أغرَتها كلِماتي وبراءتي وتصرُّفاتي الطُّفوليَّة حينها، وأحبَّت القوة التي أتسلح بها أمام كلِّ من يُقابلني بِنظراتٍ فيها شيء من شفقةٍ ورَيبٍ من حالي.

كانت تعرفُ ما بي دوماً، و تتفهَّم صمتي وسكوتي، وتكشفُ ضحكتي التي تصدُر مني لِإخفاء بكاءٍ على وشك الحضور.

أسمَيتُها مرَّة: "بسمة الحياة " لِأني كلَّما رأيتُها ارتسَمَت بسمةٌ على شِفاهي وفي قلبي، بِبساطة كانت ولا تزالُ مصدر أملي.

"صديقةٌ تشبهني"

فتاةٌ لامسَت طفولتي واستطاعت إخراجَها بعد أن أيقَنتُ بِأنّي كبُرتُ حقاً، عِشنا الطَفولة معاً عندما كبُرنا، كُنَّا شقيّتان معاً، مُتشابِهتان بِتصرُّفاتِنا وبما نُحب، وما لا نحب، بِكل شيءٍ تقريباً.

لا زِلتُ أذكر أحاديثنا، كلِماتنا، وضحِكاتنا، تشاركنا سوِيَّاً الأحزان والأفراح والكثير من التفاصيل اللطيفة والمختلفة، غضِبنا من بعضِنا البعض أحيانا، وعُدنا كأنَّ شيئاً لم يكن!

لكنَّ الفراق والبعد لم يكونا لِيهدِما صداقتنا المبنيَّة على الحب والصدق، وحدها الغربة ما فرَّقنا.

أفتقِد الحديث مع صديقةٍ في جلسةٍ طويلة، فكم من الأحاديث خبَّأتها لصديقات حين عودتي.

هل سأعود يوما؟

وهل تتركني الغربة بعد أن اختطفتني وحياتي وآمالي ذات حرب؟

غربتي جعلَتني غريبة عني بتغريبي عمن اعتدتُ البقاء برفقتهنّ

غرَّبتني عن أبسط ما أحب، رؤية أرواح كانت مُلاصقةً لي باتت الآن حلماً صعب المنال

أن تجِد من يستطيع فهمك وفكَّ شيفرات حزنك وصمتك هو حياة كاملة أُعِدَّت لك،

حياة تُبعِدك عن واقعٍ ليس فيه سوى الحزن والكثير من الصَّدمات والخيبات، حياةٌ جديدة تعشقُها وتعشقُ نفسك وكلَّ ما حولك فيها.

أذكر الأيام الماطِرة التي كنا نجوب بها مدينتنا مشيًا تحت قطرات المطر الدافئة التي تغسل أرواحنا من سواد الحزن والآلام، كانت لحظات المطر أجمل لحظات حياتنا، رسمنا الكثير من الأحلام على الطرقات المبلولة، وبُحنا بالكثير من الأسرار التي شهِدتها بضعُ قطراتٍ صغيرة.

كم من يأسٍ قتلناه ودفنَّاه بابتساماتٍ راضيةٍ قانِعة؟

كم من أحلامٍ بسيطة تمنَّيناها سويةً بقلوبٍ راجية، لم تكن سوى أن نكون معاً دوماً، بكلِّ ما أوتينا من فرحٍ نقضيه سوِيَّةً بِبساطتنا التي كنا نتحلَّى بها.

ترتسِم في ليالي غُربتي الطويلة والكئيبة صورتي مع صديقاتي، فقد كنتُ سعيدةً دون أن أدري أو أشعر، وكنتُ أُوهِم ذاتي بوجود حزنٍ داخلي.

ذاك الوهم الذي بقيتُ مريضةً به لسنين طويلة ولم أعلم سببه، الآن علمتُ بأنه لم يكن سوى الخوف من الفقد!

وها أنا افتقدتُ رؤيتهنَّ والجلوس معهنَّ، افتقدتُ الحديث والضحك، السعادة والراحة، افتقدتُ كلَّ شيءٍ محسوسٍ ومرئي معهنَّ رغم وجودهنَّ في قلبي وتفكيري، لم يَغِبنَ عن بالي لحظة واحدة.

"بنت العرب"

عندما رأيتُها في المعهد لِلوهلةِ الأولى شعرتُ بأنَّ فيها ما يجذِبني، ويُشبِهني

لكني لم أقترِب منها أبداً، لأنه لم يكن من عادتي الاقتراب من الغرباء إن لم يُباشروا هم بالاقتراب مني، ليس تكبُّراً أو استِعلاءً بل خجلاً وخوفاً.

الخجل إحدُ طِباعي، والخوف من أن أفرِض نفسي على أحد ولم يتقبَّلني، الخوف من نظراتِ الشفقةِ التي أراها تقريباً في كلِّ العيون.

ذات يومٍ ماطر كانت تبحثُ عن مجيبٍ لِسؤالها وللصدفة لم تجد غيري، سلَّمَت عليَّ وسألتني وأجبتُها وبعدها بدأنا بالتعارف وفتحنا عدة مواضيع بجلسةٍ مُطوَّلةٍ جعلتني ألتمِسُ فيها الطيبة والتواضع ، وأغرَتني لهجتُها العراقيَّة التي دمجت فيها بعضاً من لهجتِنا السورية حتى أتمكن من فهمها بشكلٍ أوضح.

أحببتُ سمارها وطريقتَها في الحياة، فقد كانت تحمِل من الأمل ما لم أستطِع أنا حملَه، تعلَّمتُ منها كيف أعيشُ بتفاؤلٍ وأترك كل ما يؤلِمني ويُخيفني على ربِّ العِباد.

تعلَّمتُ منها كيف أعيش بقوة، وبدون أي خوف أو تردد وهذا ما جعلني أسميها "بنت العرب"

لِما يحمل ذاك من قوةٍ واعتزازٍ وفخر، وهي تحمل كل ذلك.

هربت من حربٍ وحشيَّةٍ في بلادها العراق الحبيبة، واختارت كالكثير من العراقيين حينها "سورية " موطِناً ثانٍ لهم.

لم يخطر ببالِ أحدٍ منا ولو لِلحظةٍ واحدة بأن تصل الحرب إلينا، لم يخطر بِبالي بأني سأتغرَّب يوما، وبأنَّ بنت العرب ستتغرَّب ثانية!

حدَّثتني عن بلدِها ومدينتِها، عن إخوتِها وأهلها، عن بيتِها وأصدقائها، عن كلِّ شيء، حتى أنها أفصحت لي عن اعترافٍ صغير!

قالت:

((قبل أن أتعرَّف بكِ عن قرب كنتُ أراكِ فتاةً مغرورة ومُتعالية!))

تعجَّبت من كلامِها وسألتُها عن السبب

أجابَت: لم أركِ تتحدثين مع أحد أو تقتربين من أحدٍ في المعهد سوى مساعدة المدير، حتى أني أشعر بأنكِ تملِكين نظرة اللامُبالي بأحد!

ضحكتُ وقتها كثيراً لأن شعورها ذاك لم يكن في مكانِه أبدًا.

أخبرتُها عن سبب عدم اقترابي من أحد، وأخبرتُها أيضاً بأنَّ "مساعدة المدير" لم تكن سوى صديقةٍ قديمةٍ لي أحبُّها وأُكِنُ لها في قلبي احتراماً ووفاءً، لذلك أتجرَّد من جميع مخاوِفي وأفكاري السلبيَّة بحضورِها، حتى أني أشعر بطفولتي برفقتها اللطيفة.

لم تكن إنسانة عاديَّة في حياتي، بل أني كنتُ أجد حياة جميلة وممتعة بِقربِها.

سألتها: والآن بعد أن عرفتني، كيف أبدو لكِ؟

أجابت مُبتسمةً بأني أبعد ما يكون عن الغرور والاستعلاء، وبأني كطفلة صغيرة مليئةٍ بالحياة.

أوصتني مرة بِحفظِ جملةٍ ووضعِها أمامي في كلِّ أمرٍ أواجهُه، وفي كلِّ مرةٍ أفشلُ في تحقيق أمرٍ ما، في كلِّ مرَّةٍ أقعُ فيها، وفي كلِّ مرةٍ أخسر فيها أحداً أو شيئاً، في كل مرَّة أفرح فيها، وأفوز فيها:

((سـأجعلُ القدر أحلى الأماني))

ومن حينها لم أنسَ تلك الجملة أبداً، بل أنها باتت تقفز إلى أفكاري كلما شردت، ولم أنسَ بنت العرب، تلك الفتاة القوية المعجونة من إيمان وأمل بأنه مهما كانت الظروف قاسية وصعبة لا بدَّ من مجيءِ قدرٍ يغيِّر كلَّ شيء إلى الأفضل إن شاء الله حدوث ذلك.

" إلهام "

لم أتوقع يوماً بأن تتطور علاقتُنا إلى صداقة حميمة، عندما رأيتها في البداية وعرفتها ظننتُ بأنها ستكون كجميع العابرين، سلامٌ وابتسامة فقط!

لكن إحساسي الذي لطالما خذلني فعلها هذه المرة أيضا وخذلني مجدداً، حتى أصبحتُ إنسانة لا تثق بما تحس به أحياناً!

مكانٌ ما جمعنا وطوَّر علاقتنا حتى بِتنا من أعزِّ الأصدقاء،

مكانٌ قضَينا فيه أجمل أيامنا وأوقاتنا،

مكانٌ شَهد فشلنا ونجاحاتنا، أحزاننا وأفراحنا، شقاوتنا وجدِّيَّتنا

شهِد أملاً نمى وكبُر داخلنا، وآخرَ تضاءل وأوجعنا وحطَّم عزيمتنا

شهِد صمودنا وتصميمنا على بلوغ الهدف، وانكساراتنا المفاجئة

أفعالُنا الجنونية تلك لازِلت أذكرها ولم تغِب عن بالي لحظةً واحدة

رغم اختلافنا في بعض الأمور لكنَّنا كنَّا نحمل في قلوبنا الحب ذاته، والصدق ذاته، والطيبة ذاتها

وبعض الاختلاف يكون لذيذاً بعيداً عن التشابه والروتين المُتماثل، أحببتُ فكرة اختلافاتنا البسيطة، بل أنها أغرتني وأعجبتني.

علينا البحث أحيانا عن أشياء مُختلِفة عنا وعما اعتدنا عليه، لأن التشابه الكبير بين الأشخاص وطرق تفكيرهم يُفضي إلى الملل، والملل بؤرةٌ عميقة من ضياعٍ وتشتت وقد تتطور لِلإهمال!

ثلاث أشهر تقريبا قضيناها في المركز الثقافي في مدينتي "التل" مع بعضنا وقد كانت فترة امتحانات الشهادة الثانوية والتي غيَّرت الكثير في حياتنا، غيرت حتى بعض أفكارِنا ومخاوفنا، غيَّرتنا نحن، علَّمتنا أن نكون يداً واحدة وألا نيأس مهما كانت الضغوطات والصُّعوبات تحيطنا لا بد لها من الاندثار والانكسار، ولا بد لقلوبنا الحالمة من الرقص على أوتار النجاح وبلوغ الحلم.

دقَّت الغربة الأبواب مُكشِّرة عن أنيابِها وابتسامتِها الخبيثة بأنها ستُفرّقنا جميعاً، وتنثُر كلاً منا في بلدٍ مختلِف، وكأننا لعبة أحجارٍ أمامها، كلُّ حجرٍ ترميه في مكان بعيد عن الحجر الآخر!

في البداية وقع اختيارها على بنت العرب التي شاءت أقدارها بأن تتغرَّب ثانيةً من وطنٍ أحبَّته واعتادت الحياة فيه وعشِقته إلى موطِنها الأصلي العراق الذي ما يزال جريحا، موطنها المُشتَّت أصلاً، والذي يحلم ونحلم جميعنا بأن يعود عراقاً عريقاً جميلاً آمناً.

تغرَّبت مُجدَّداً من حربٍ جديدة لا زالت وليدةً إلى حربٍ دامت طويلا ولم تهدأ بعد.

ومن ثم اختارت إلهام لتودي بها غربتها إلى لبنان، ذاك البلد الذي كان له نصيب وفير من الألم، رحلت لتبدأ مشوار حياتها بلا يأس أو هوان، فقد قرّرت أن تكون الأقوى وأن تضع أُسُسًا جديدةً لبناء حياتها من البداية وهي الفتاة التي لم تعرف لليأس عنوان.

قرَّرت أن تتحدى غربتها بتقبُّل الظروف الجديدة المفروضة عليها والبدء بحياة بعيدة عن الفقد والألم!

لم أتخيل يوماً بأن يقع اختيارها التالي عليَّ وعلى عائلتي!

ولكنَّ الأمور بدأت تتسارع والعنف يزداد، انتشر أولئك الذين يدَّعون بأنهم جيش يحمي الوطن في أرجاء مدينتي الهادئة، انتشروا يُخرِّبون ويوزِّعون خوفاً ورعباً حيثما كانوا يتمركزون.

لم يعد للأمان مكان، لم يعد بإمكاننا الذهاب حيثما نود كما كنا قبلاً، فقد بات الخوف المُسَيطر الوحيد على الوضع حينها.

ذات رمضانٍ امتلأت سماؤنا بطائراتٍ ذات أصواتٍ عاليةٍ تبُثُّ رعباً في قلوب السكان!

كانت قريبة من المباني بشكلٍ كبير، هي ذاتها التي أسقَطَت براميل موتٍ ومازالت على أحياء برزة وحرستا وداريا من دمشق!

هي ذاتها طائرات الموت التي تبُثُّ رعباً ودماءً وخوفاً!

أذكر ذلك اليوم عِندما تركنا منزِلنا لِلمرة الأولى وذهبنا تحت تحليق الطيران فوق رؤوسِنا إلى بيتِ جدي القريب منَّا لنكون مع بعضنا فنتشارك الشعور بالألم والخوف، ونواسي بعضنا البعض حتى تمرَّ تلك المحنة!

أذكر ملامح الخوفِ والرعبِ في وجوه أفراد عائلتي، وذلك الخوف الذي كان يرتجف داخل قلبي، لا زلتُ أستشعِرُ وجوده حتى الآن.

المفترض من "الآن" أن يكون آمنًا في الظاهر بالمقارنة مع تلك الفترة، ولكن الحقيقة أن لا وجود لشعور الأمان في الأعماق من دواخلنا، فأنت لستَ سوى "لاجئ" أينما حلَلتَ ومهما كنت، ستبقى وصمة الكلمة مرافقةً لك، ليست الكلمة هي المشكلة بل في تبِعاتها من نظرة العالم والمجتمع لك، والقرارات التي ستُوجه لك وضدك، في عدم الوثوق بإمكانية بدء حياة مستقرة في ظل ما يُعانيه العالم من أزمات، في الخوف الدائم والمستمر من إبعادك بأي لحظة ولأسباب غير معروفة من المكان الذي اتخذته ملجأً خاصة لو كان عربيًّا وللأسف!

لا زالت الدعوات والابتهالات التي كنَّا نطلِقها لله الحافظ بأن يحفظنا وبلادنا عالقةً في ذاكرتي.

ولازلتُ أذكر بعدها بفترة كيف قرَّرت تلك الطائرات الغادرة أن ترمي ببراميلها وحملِها من الموت والدمار على مدينتي، فجأةً لملمنا ما يلزمنا من أمتِعة وحاجيات ورحلنا مُبتعدين عن الدمار وملامح الموت.

ذهبنا إلى مدينة قريبةٍ من مدينتِنا عند أقارِب لنا، واستأجرنا منزلاً صغيراً مكونٍ من ثلاثِ غُرفٍ ليست كبيرة لحدٍّ كبير، وكنا ثلاثُ عائلات في ذلك المنزل!

منذُ وصولي لِلوهلة الأولى إلى ذاك المنزل وأنا أشعر بالانكسار والهوان.

أشعر بأنَّ شيئاً ما داخلي يتعمَّد خنقي وكتم صوتي الرافض لِما ينتظِر مدينتي من نصيبها في الدمار، وبحقدٍ كبيرٍ على تلك الحربِ التي لا تعرف ولن تعرِف لِلرحمة طريق.

بكيتُ كثيراً، بكيتُ ما آل إليه الوطن، بكيتُ من مات قصفاً ومن سيموتُ قريباً، بكيتُ ياسميناً بدا عليه صِباغ الدمِ والموت.

مع وصولِ الصوتِ الأولِ من القصفِ الغادر على مدينتي انهارت قِواي وبدأت التهيُّئات والخيالات تعرِضُ نفسها في ذهني الغائب عن كلِّ شيءٍ إلا صوت الموت وحربٍ فرضَت نفسِها على وطنٍ لم يعرِف يوماً إلا الخير والحياة، بدأتُ أرى أشلاءً وأموات، صِرتُ أسمع أصوات صراخٍ وعويلٍ وتنهُّدات، أصوات أطفالٍ لم تجِد سوى البكاء وسيلة للتعبير عن خوفهم ورعبهم!

صِرتُ أتخيل حال أولئك المحبوسين تحت أنقاضِ بيوتهم، هل سيصمدون ويعيشون أم أنهم سيموتون تحت جدران بيوتهم المهدَّمة؟

أستفيق من اغماءتي على صوتِ الضربِ والقصفِ والدمار الواصِل إلى أُذنيَّ من مدينتي البائسة، أنظر حولي ثمة ملامح كثيرةٌ خائفة وملامِح راجية من الله رحمة، ثمة أصوات تمتماتٍ من الدعوات فلم يكن بوسعنا سوى الدعاء والتوسل لله تعالى

بعد ثلاثة شهورٍ من الترقُّب والخوف والتوتر والألم، من حصارٍ فُرِض على المدينة، وبعد شهورٍ من زيارة الحرب الغير مرغوب بها، عُدنا إلى المنزل والخوف يسيطر علينا من مجهولٍ ينتظرنا، لا أنكر بأن تلك الحرب الهمجيَّة فجَّرت رغبتي بأن أصرخ عالياً:

أريد أن أكتب!

أريد أن أكون كاتبة!

لم يكن أمامي طريقة أعبر بها عن رفضي للموتِ والدمار والحرب سوى الكتابة

لم أجد سلاحاً أُنِدّد به أساليب الحرب الهمجيَّة والقمعيَّة سوى قلمي

قلمي الصَّارخ النازف والرَّافض

قلمي ذاك السلاح الذي سأدافع به عن كل مظلومٍ جائع مسلوب الحقوق والحريات، هو الكارِه لغربة فرضت نفسها عليَّ وعلى أبناءِ الوطن جميعًا، الكاره لِحربٍ قتلت ابتسامة كانت يوماً مُشرقة في وجوه السوريين جميعاً.

أسأل الله ثباتاً وقوة وفرجاً قريباً، وأرتجيه أن يصبَّ في قلبي أملاً كثيراً أبثُّه إلى قلوب المظلومين بكلماتي.

أخجل من عجزي عن فعلِ شيءٍ سوى الكتابة!

ولكن ما بيدي حيلة سواها والتوكلِ على الله.

يوم رحيلي كان يوم انتِشال روحي مني، يوم غياب النور والأمان، كان يوم رحيلي عن روحي التي بقِيَت معلَّقةً بين نسمات الوطن.

يومها بقيتُ مُتشَبِّثةً بِصديقتي حتى أنَّ دمعاتي لوَّثَت قميصها حزناً واختناقاً

لم أحتمِل فكرة أن يُفرّقني عن الوطن وعن صديقاتي وحياتي التي أحببتُها شيء، حتى لو كان حرباً!

أذكر قطعة الحلوى التي أحضرَتها لي، مازِلتُ أحتفظ بها إلى الآن من فرطِ جنوني كذكرى ليوم الفراق،

كذكرى من صديقةٍ لم تكن سوى قلبي النابض والأمل الذي أعيش فيه.

أوصتني صديقتي قبل الرحيل بأن أرفع إصبع الأمل في وجه أيِّ ضعفٍ أو هوانٍ قد يجتاحني لِأتسلَّح به فأقوى وأتماسكَ فلا أقع.

لازلتُ أذكر ضحكتي المُمتزجة ببكاء حارقٍ عندما اكتشفتُ بأن إصبعي ذاك لم يكن إلاَّ إصبعًا مِعوجّاً!

لم يخطر ببالي يوماً أن نظرتُ إليه بتمعُّن، الآن صرتُ أتأمَّله وكأنه هديةٌ ثمينة حصلتُ عليها فجأةً.

أذكر ملامِح صديقتي الأخرى المحقونة بحزنٍ ودموعٍ لا يستطيع أحد إلاَّ أن يُميّزها ويكشِفها مهما حاولَت إخفاءها، شعرتُ بها تخنُق دموعها كي لا أراها وأضعُف فوق ضعفي أكثر.

لِذاك السوار الأزرق عِشق في قلبي، كيف لا يكون له ذلك وهو تذكارٌلي قبل الرحيل.

جميلة هي التِّذكارات، بإمكانِها انتشالكَ من واقعكَ إلى ذاك الزمن الذي كنتَ فيه في قِمَّة سعادتِك وهنائك، بعيداً عن اختِناقكَ وغربتِك.

- مرَّةً حلُمتُ بأنَّ دموعي ما زالَت عالِقةً على قميصِ صديقتي!

أخبرتُها بما رأيت وبكيتُ من فرطِ الألم وشوقٍ يُسيطر عليَّ ويُذكِّرني بأني لستُ سوى مُفارِقة لِسعادتي وحياتي،

مع أنَّ أحاديثنا لم تكن سوى "دردشات كِتابيّة على مواقع التواصل الاجتماعي"، إلا أنها كانت فقيرةً من البهجة والفرح القديم!

كم دعوتُ الله ورجوتُه أن تنتهي الحرب وتموت الغربة ونعود كما كُنا قبلاً سُعداء في أحضان الوطن تحت ظِلال أشجار الزيتون بِجانب ياسمينةٍ بيضاء نقيَّة أبَت إلاَّ أن تُمتِّعنا بعبيرِها الندِي.

وهل هناك أجملُ من ياسمينةٍ بيضاء تنثُر عطرها أملاً وحباً في القلوب النقيَّة؟

تلك الدردشات الكتابيَّة تقتلُ أجمل اللحظات وأدقّ التفاصيل التي من الممكِن أن تكون الأجمل على الإطلاق خلف شاشةِ هاتفٍ تحوي مجموعة من الحروف والكلماتِ المُحمَّلةِ بالشّوقِ والحنين واللَّهفة لِلعودة واللِّقاء، ولكنَّ حاجتنا للشعوربالقربِ والاطمئنان على أحوالِ بعضِنا البعض تُجبِرنا على تقَبُّل هذا النوع الذي أعُدُّه "كذِباً على الذات" علَّنا نستطيع من خلاله إطفاء لهيبِ الغربة اللاذع.

- بعضُ الأحلام تبقى أحلاماً مهما رسمنا لها مِن مشاريع وخطط، والبعض الآخر منها تموتُ قبل أن تُولد وتتنفَّس شيئاً من أوكسيجين هذه الحياة المُلوَّثة بِواقع كئيب وأحلامٍ باتَت على مهبِّ الرحيل.
  غريبةٌ الحياة بِمفاجآتِها!
  كم من الخُططِ رسمنا كي نبقى معاً، كم من الجلسات التي يغزوها البُكاء والضَّحك والكلِمات المُبهمةُ التي لا يفهمها سِوانا، وكم من الآمالِ تحدَّثنا عنها وكأنّنا كُنَّا على ثِقةٍ بأنَّنا سنُحقِّقها معاً؟

فجأةً!

هجمَت الحربُ كغيمةٍ سوداء غطَّت كلَّ شيء بالآلام والأوجاعِ والظلام،

جاءَت بِملامِح شبحٍ مُخيف يرمي البعض في قبورٍ، وآخرين يُوقِعهم أمواتاً دون قبور، يسفِك دماً هنا ويقتُل حياةً هناك.

وتأتي بِالغربة الشمطاءِ كعجوزٍ بشِعةٍ شامِتةٍ ساخِرة لِتسرقَ البعض من الوطن فتُغرِقهم في سجنِها وحِرمانِها من كلِّ شيءٍ سِوى الحنين القاتل.

وتُجبر آخرين على المُكوثِ غُرباء داخل الوطن تحت سقفِ الموتِ والفقرِ والجوعِ والحِرمان والفقدان معدومي الحياة!

إذاً جاءت الحرب وفرَّقتنا جميعاً، وزَّعتنا على بُلدان أخرى مِن العالم، وبعضُنا أبقَته تحت رحمة حربٍ لا ترحم.

غُربة شِتاء

في واقِعنا القاسي المليء بالأحداث المؤلِمة والحزينة

واقِعٌ لا يحملُ سِوى الطمع والجشع وحبِّ المصالِح

واقعٌ يحشو أدمِغة البشر بِأفكارٍ غريبة ليست من بين أفكارهم، فكارٍ فيها من الأنانيَّة والظلم القسم الوفير

واقِعٍ يعتمد سياسة القويّ دائماً، ولا ينظُر لِحال الضعيف، حتى أنه باتَ لا يهتمُّ بِأمره!

لِأيّ درجةٍ مِن الانحطاط الإنساني وصل بنا الحال؟

واقعُنا بات يعيشُ على الحروبِ ويقتاتُ منها، يمشي على أجسادِ الفقراءِ ويأكلُ قوَّتهم، ويحرق آخِر ورقةِ أملٍ يمتلِكونها، لِيُصبحوا عُراةً تماماً من أيّ لمحةِ أملٍ تبرُقُ أمام أعيُنهم.

من أين أتَت الحروب بكلِّ هذا الدمارِ والقسوة؟

أو أنَّ السؤال الأصحَّ يجب أن يكون: لِماذا تُقامُ الحروب فوق رؤوسِ الفقراءِ والمساكين؟

أليس من حقِّهم العيشُ كغيرهم من البشر؟

هو واقِعٌ أشبه بشتاءٍ شديد البرودة والصَّقيع يعيشُه اللاجئون تحت الخِيامِ القماشيّة،

شِتاءٌ يعيشه الطفلُ الفقيرُ على قارِعة الطريق وقد تيبَّسَت أطرافه برداً!

شتاءٌ يعيشُه الطفلُ اليتيمُ وهو ينظر أقرانه من الأطفال بين آبائهم ويتمنى أمنية بسيطة "ليتَ لي أبوينِ مثلهم"

فيبكي ألم الفقدِ والوحدة والاحتياج لِحضنٍ دافئٍ يطرُد عنه همومه.

أيُّ شيءٍ أقسى من حياة طفلٍ فقيرويتيمٍ معاً؟!

شِتاءٌ يفتقِد فيه الرجل كرامته وعِزَّته وحقَّ احتِفاظه بدموعه، لِيصرخ بِأعلى صوته باكياً:

"إلى متى يا الله فقد ضاقَت بي السُّبل إلاَّ منك!"

شتاءٌ تفتقِد فيه الأمُّ أولادها لِينضموا إلى قوافِل الشهداءِ والمفقودين والمُعتقَلين، وأحياناً تفتقِد فيه سَنَدها الوحيد في دُنياها، ذاك الذي تستمِدُّ منه قوَّتها لِتغدو بِلا حولٍ ولا قوة بعدَه.

وفي ظروفٍ أخرى تفتقِد فيه فتياتٌ حياتهنَّ وكرامتهنَّ وبعضهنَّ يفقدنَ عُذريَّتهنَّ وحياتهنَّ بأكملها من أجل وحوشٍ لا تمُتُّ للإنسانية بأيّ صِلة!

شِتاءٌ يفتقِد فيه الوطن أبناءه فينقسِمون إلى شُعَبٍ كثيرة:

مؤيِّدٍ ومُعارِض، قاتِلٍ و مقتول، مُقيمٍ ومُغتَرب، فقيرٍ وغني، ميّتٍ وحيّ!

فأما المُعارِضُ والمؤيّد فهُما وقودُ الحرب، أحدهما ثارَ من ظلمٍ وذُلٍّ، والآخرُ قام لِأنه يريدُ إخماد الآخر فحسب!

أحدُهما يُدافعُ عن أرواحٍ و حياةٍ وعقيدة، والآخر يدافع عن أفكارٍ قديمةٍ مَحشُوَّةٍ داخل رأسه!

أحدهما تطوَّر به الحال الصَّعبُ لِأن يتخلَّى عنه الجميع رُغم رؤيَتهم ما حلَّ به من دمارٍ و موتٍ وقتلٍ وجرائم كبيرة حدَّ الذهول و الدَّهشة فيبقى مُتَمسِّكاً بِحبلِ الله لِأنه يؤمِن بِما يُدافِع عنه، والآخرُ يقوى بالجميع دون أن يُدرك بأنَّ الله يمُدُّ لِلظالمين وينصُر الحقَّ والمظلومين ولو بعد حين.

وأما القاتِل والمقتول فهما وجهٌ من وجوهِ الحرب، أحدُهما يقتُلُ بِأساليب مُتنوّعة ومتجدِّدةٍ في كلِّ مرَّة، والآخرُ يُقاوِم حتى تُفارِق روحه الجسد!

أمَّا عن المُقيم والمُغترِب فأحدهما يُقيم في وطنٍ جريحٍ كئيبٍ يُقاوِم برده وجوعه وفقره وحربه و دماره، والآخر يقيمُ في أوطانٍ مُتفرّقةٍ لم تحتمِل وجوده فوضَعَت في وجهِه القوانين والقرارات وقيَّدَته بِجوازاتٍ و إقاماتٍ ومصاريفَ تفوقُ قدرتَه و كأنه زائرٌ غنيٌّ أتى بِهدفِ السِّياحة، بل إنَّ بعض البُلدان نصبَت الخيامَ المُهترِئة على حدودِها حتى لا يدخُلَ إليها أحد!

وليتدبَّر أولئك الهاربين من حربهم أمرَهم مع البردِ والحرّ والجوعِ والمرض وكافة المُقوِّمات التي ستُواجه حياتهم الجديدة هناك!

هل من أحدٍ أن يُخبِرَني من أينَ لِهاربٍ من وطنٍ مُدمَّرٍ بِكلِّ هذه المبالِغ التي تفرِضونها عليه؟

ألم يوصينا الرسول صلى الله عليه وسلَّم بِمُساعدة المُحتاجِ والضعيف؟

أين أضَعتُم وصيَّة قُدوَتِكم؟

من أين لِهاربٍ من موتٍ و أنقاضٍ أن يدفع مصاريف لجوءه لِبلدٍ عربيٍّ مسلِم؟

من أين له بِتأمين إيجارِ السكن الغالي، ودفع ثمن إقامته، وتكاليف علاجه الباهظةِ جرَّاء الضُّغوطاتِ النَّفسيَّة التي قدمتموها له كهديَّةٍ لِلجوءِه؟

علاوةً على قانونكم الجديد الذي بدأتم بتنفيذِه، والذي ينص على أنَّ:

"على كلِّ مُغترِبٍ أو لاجئٍ إلى بلادِنا أن يتجرَّد من كافةِ أحلامِه وآمالِه والتخلصَ منها قبل الدخول!

لا مكان لِأحلامكم هنا!

ذات صباحٍ شتاءٍ باردٍ في وطني قبل أن تسرِقني غربتي منه، قرَّرتُ بأن أكون الدِّفءَ لِلقلوب البارِدة، والأمان لِلأرواحِ المُتعبة.

قرَّرتُ أن أكون شِتاءً دافئاً يبُثُّ دِفئه بِكلِماتِه وحروفه.

قرَّرتُ أن أكون شِتاءً يأمَلُ بِدفءٍ يُغَلِّف حياتهُ البارِدة.

قرَّرتُ أن أكون كاتِبةً، أكتُبُ عن الضَّعفِ وعن أولئك المُحتاجين لِلأمانِ والحياة.

أكتُبُ عن أولئك المُختلِفين الذين يحلُمون بأن تتغيَّر حياتهم مِن مرارةٍ و قدَرٍ كُتِب عليهم وتوجَّبَ عليهم تَقَبُّله و الصَّبر عليه وتحمُّل نظرات أولئك الذين لا يُمكنُهم حتى تَخيُّل الألم الذي يرمونَه بتِلك النَّظراتِ في القلوب المتعبة.

أكتُب عن وطنٍ يموتُ وينهارُ و لا أحدَ يُحاوِلُ حتى أن يُقدِّم لهُ و لِأبنائه يد العون

عن وطنٍ ضاع أبناؤه وتذوَّقوا الكثير من الأسى والألم، وأشدَّ أنواعِ العذاب

عن وطنٍ باتَ مقبَرةً زُوَّارها كُثرٌ بفعلِ الحرب!

تِلكَ الحربُ الهَوجاءُ التي أتَت بِدمارِها وكافةِ صُورِها المُشوَّهَة الكئيبة

عن غربةٍ قتلَتني حين رمَتني خارج حدودِ وطني وتركَتني أتجرَّعُ مرارة الفقدِ والحنين، ومرارة الأحلام التي ذبُلَت وماتَت حين وطَأَت قدماي طائرةَ الرَّحيل.

غُربة الشِتاء هي غُربتي وغُربة أبناء وطني سواء

غُربتي حينَ قدِمتُ على هذه الدنيا كَوني من فئةِ المُختلِفين!

وغُربتي حين ابتعدتُ عن أصدِقائي ومن ثُمَّ نجومي وشُرفَتي وأخيراً، وطني!

وحينَ تغرَّب وطني عنهُ لِيرتدي حِداده المُلوَّن بالدماءِ والخوف، رِداءَ الحربِ!

غربة أبناء وطني اللاجئين في بِقاعِ الأرضِ يتوَسَّدون السَّماء بلا مكانٍ دافئٍ ولا حتى أمان

وغربة أولئك الذين استُشهِدوا ومازالوا يُستَشهدون و يودِّعون الأرض بعد أن وضعوا بصمتهم عليها

غربة أطفالٍ حُرِموا حتى من حقِّ الطفولة والحنان، أطفال فقدوا آباءهم وألعابهم وبيوتهم وأحلامهم،

أطفال فقدوا أرواحهم برداً وجوعاً وليس بِفعلِ أسلِحة الحربِ من الرَّصاصِ والقذائف!

أطفال حُرِموا من حقِّ العيشِ بسلام.

متى تعودُ يا وطن السلام فالعالمُ ضاق بِنا و بِأحلامِنا، وحدك من تتَّسِع لنا وبِنا؟

عبرَ شاشةِ التِّلفاز

في وطنٍ هو ليسَ لي، أغرَقَتني غربتي وجرَّدَتني من آمالي و أحلامي، في وطنٍ لا يستقبِلُ الأحلام سُجِنتُ وبقيتُ مُعرَّاةً تماماً من أيَّ حلُم واحد ولو كان بسيطاً!

في وطنٍ ليس لي فيه شيءٌ سوى الفراغ المُمِل الذي يلفُّني ويُحيطُ بي كالظلام الذي يلُفُّ صاحبه،

في وطنٍ ليس لي فيه أيُّ بسمةٍ أو ضحكةٍ أو لمحةُ فرحٍ، أعيش مُجرَّدة من كلِّ حلمٍ أو أملٍ تركته على أرضِ الوطنِ قبل صعودي طائرة الرحيلِ إلى منفاي الذي أتمنى فقط لو أني أستطيعُ الخروج منه بأي طريقة ولِأي مكان آخرَ رُبما أجد بعضاً من أحلامي فيه.

أن تعيشَ مُجرداً من أحلامك يعني أنَّ روحك تموت بِبُطءٍ شديد، يعني أنَّ الفراغ يلُفُّكَ من كلِّ جانِب والضياع في الأفكار يُسيطرُ عليكَ، والتَّشتُّت هو الشَّيء الوحيد الذي تشعُرُ به.

وهذه أكبرُ جريمةٍ اقترَفَتها غُربتي حين ابتلَعَتني، إذ أنَّها جرَّدَتني من أحلامي المُتَمثِّلة بإكمال دِراستي والغرق في المركز الثَّقافي لِقِراءة الكتب واكتِساب الكثير من المعرِفة والأفكاروالأصدقاء، لِأني أعشق مُشاركةَ الآخرين هواياتي وأفكاري وما أحب، وفي ذاكَ المكان كنتُ سأجِد ما أبحثُ عنه وأتمنَّاه.

لكنَّ الحرب أتَت مُباغَتةً فحرمَتني وأبناء شعبي جميع الأحلام!

حيثُ ساقتني غُربتي لم أستطِع إكمال دراستي ولا تحقيق شيءٍ مما تمنَّيته.

لم أكُن سوى سوريَّة لاجئةٍ كسائِر اللاجئين مسلوبي الآمال والأحلام، لم أكن سوى سوريَّةٍ لاجئةٍ لا تملِكُ إقامةً حيثُ تعيشُ غُربتها.

لم يكُن عليَّ في هذه الحالة سوى الصبر وانتِظار الفرج من الله فهو حسبي وحسبُ شعبي وأبناءِ وطني المنتَشِرين في أقاصي الأرض بهمومهم وأحلامهم المرفوضة!

وحده الوطن من يحتَضِن أحلامنا بِكثير من الحبِّ والأمل.

ثلاثُ سنواتٍ ولم يُحِط بي سوى الفراغ والضَّجر وجدرانِ المنزل التي لا تتغير مع تغَيُّر الأيام.

أصبحتُ أحسِدُ نفسي عندما كنتُ في الوطن عند أستيقِاظي صباحاً لِأُخرج سريعاً إلى شُرفتي لاحتِساء قهوتي مُستَمِعةً لِصوتِ فيروز الهادئ، مُستَنشِقةً هواء الصَّباح ونسماته التي تحمِل أملاً جديداً لِيومٍ جديد، أُسلِّم على الشمسِ الدَّافئة وعلى شجرةِ الزيتون الواقِفةِ كعادتِها وسط حديقةٍ صغيرةٍ تُطلُّ عليها الشُّرفة، وعلى الياسَمينةِ العطِرَة النقيَّة التي تنشُر عبيرها نقاءً وسلاماً على القُلوب المُستَيقِظة لاستِقبال يومٍ جديد، وعلى أبنِيةِ الحارة المرصوصةِ بانتِظامٍ جميل.

أُراقِب وجوه المارّين المُتفائلة مِنها والبائسة، الضاحكة منها والعابِسة، والتي تنبِض حياةً وأملاً وأخرى تكادُ تصرخُ آثارُ التَّعبِ والبؤسِ على ملامِحها.

في وطني لِكلِّ وجهٍ ملامِح تحكي حكايةً وألف عِبرة.

أُتأمَّلُ جارنا الطيِّب الذي ما انفَكَّ يتركُ قرآنه حتى يُداعِب أحفادهُ الصِّغار، أحياناً كنتُ أتمنى لو أنني أستطيعُ أن أكون حفيدتَه أيضاً ولو لِمرَّةٍ واحِدة فقط !

أعلم أنها أمنِيةٌ ساذجة، لكنَّ الإنسان يُحِبُّ بطبعه أن يشعر بحبِّ من حوله له!

أعود من ذاكِرتي وأنا أُردِّد : وأيُّ صباحٍ يُقارَنُ بِصباحٍ واحِدٍ في بلادي؟

تمنَّيتُ لو أني أستطيع فِعلَ شيءٍ لِقتلِ ذاكَ الفراغِ المُتربِّص بي، لم أستطِع فعلَ شيءٍ سوى إمضاءِ الوقت الطويل على الانترنت وموقِع "فيسبوك"

من خلاله تواصَلتُ مع أصدقائي البعيدين بالمسافات والذين يستَوطِنون القلب واطمأننتُ عليهم، وعرَفتُ أصدقاء آخرين من بلدي ومن جنسِياتٍ مُختلِفة ، بعضُهم استطاعوا أن يَستَوطِنوا قلبي أيضاً ويُصبحوا جزءاً من حياتي، وبعضُهم من تعلَّمتُ منهم الحذر وأن لا أنظر لِلجميع بِنفسِ النظرة البريئة، فكان مِنهم الطيب والخبيث الذي لا يُجيدُ سوى التَّلاعُب بالآخرين.

ولكنَّ البقاء خلف شاشةٍ طِوال الوقتِ ومُحادثة الأصدقاء بِحروفٍ مُستَفِزَّةٍ صامِتة بلا حياة هو ما زاد ضجري واختناقي، وأنا المُعتادَةُ على مُحادثةِ الآخرين وجهاً لِوجه، أرقُب ملامِح وجوههم، وأستمد من أصواتِهم وضحكاتِهم ونبرتهم الحازِمة أملاً وقوةً وشعوراً لذيذاً بأنَّ هناك من يحبني من الأعماق، وأنَّ هناك من يستقبِلني بابتِسامةٍ إذا ما صادَفتُه، تلك الإبتسامة تفعل الكثير..

وشعوراً بغيضاً بِأنَّ هناك نظراتِ شفقة تُشعِلُ نيران غضبي و قهري إذا ما لمحتُها من بعضِ الأعيُن الجاهِلة التي لا تشعُر بِمرارةِ الآخرين .

في بِلادٍ ليست لي تذوَّقتُ المرارة والألم، عِشتُ فراغاً وتشتُّتاً مُرهِقَين ولا شيء سِواهما

فيها كرِهتُ نفسيَ التي أصبحَت كئيبةً كجفافِ طقسِها تماماً، أمِنَ المعقولِ أنَّ هواءها وطبيعتَها الجافَّة انتقلتا إلى روحي التي كانَت كتلة حياةٍ وأمل واستوطَنتاها؟

أصبحتُ فتاةً كثيرة النومِ والشَّكوى، كثيرة الأحلامِ قليلة الحيلة!

وكأنَّ الأحلام عندما تكثُر ولا تجِد منفذاً تقِف على حافَّةِ الأملِ لِتسُدَّ نافِذتَه التي كانَت تتدفَّق نوراً فيَغرقُ الحالِم بِفراغِ أوهامِه وآمالِه البائسة.

حيثُ تغرَّبتُ ساءَت صحتي وتراجَعَت أمتاراً إلى الخلف، أصبحتُ ضعيفةً وأضعف مماكنتُ عليه، لم يعُد باستِطاعتي المشي مسافاتٍ طويلةٍ كما كنتُ أفعلُ في الماضي.

فالمشيُ الدَّائم والمُتواصِل هو ما كان يُقوّي عضلاتي الضَّعيفة ويُحَسِّن من وضعي الصِّحي وحتى النفسي، ولكنَّ بلداً يعيشُ على السياراتِ ووسائِلِ النقل المُختلِفة دون حركةٍ دائمة مستمرَّة مِن أين لي بِأملِ أن أُشفى به يوماً؟

إلاَّ إذا أراد الله أمراً، وما توكُّلي إلا عليه.

لم تَرُق لي الحياة هنا، لم أجد أكسيجين الحياة التي تنبِضُ بِقلبي راحةً وسعادةً وأملاً، ولكن عليَّ أن أصبِر،

رُبما كانت هناك حِكمة إلهية بوجودي هنا، ولكلِّ أمرٍ يكتبه الله لنا له حِكمةٌ من حدوثه خيرًا كان أم شرًّا،

وكثيرٌ من الأملِ يأتي فقط من الإيمان!

في منفايَ بكَيتُ كثيراً كلَّما ذكرتُ الوطن، وبِذاتِ القدَرِ من البكاء كتَبتُ!

وحدَها الكِتابةُ كانت عزائي الوحيد في غربتي وشتاتي، كانت مَنفَذي ومُتَنفَّسي الوحيد من اختناقي الدائم.

في غربتي أفصحت لِلجميع بأني كاتِبة، كنتُ أنشُر كلَّ ما أكتُبه على "الفيسبوك"،

كنتُ أشعرُ بالامتِنانِ وبِشيءٍ من السعادة لِأنَّ ما أكتب كان يؤثِّر بمن يقرأ أحياناً، ويُعجِبهم في كثيرٍ من الأحيان، هي نعمةٌ وهبةٌ رزقنِيها الله أشكرُه عليها جزيلَ الشكر.

واصَلتُ نشر أفكاري وكلِماتي على مواقِع التواصلِ الاجتماعي وكبُرت دائرةُ من يقرأ لي قليلاً، هم من أعطوني دافِعاً لِأكمل،

اقترَحَت عليَّ صديقتي "إلهام" عملَ كتابٍ لي كي أقتل به اليأس والملل، ولِأخرج من حالة الصمت والوحدة السلبية والشتات، لِأشعر بأني قادرة على التماشي مع الواقع المفروضِ عليَّ وربما أستطيع تغيير مشاعري تجاهه لمشاعر تقبُّل وامتنان على لحظات الوحدة!

الوِحدة نوعان برأيي، إحداها إيجابية والأخرى سلبية، فالإيجابية هي تلك التي يجد فيها الواحد نفسه ويكتشف ذاته وقدراته ويستثمرها لِتطويرها وتدريبها على التحدي والتقبُّل وتغيير ما يمكن تغييره للأفضل.

أما السلبية فهي تلك التي تجعل صاحبها سجين ضيقٍ ويأسٍ وألمٍ مستمر، تجعله بلا أملٍ ولا قدرةٍ حتى على التفكير بتغيير شيءٍ ما في حياته.

في البداية كنتُ خائفة ورافِضةً لِلفكرة ولكنَّ إصرارها الدائم حوَّل خوفي إلى حماسٍ وأمل جديد، بدأتُ بِجمعِ خواطري ونصوصي النثريَّة المُبعثرةِ هنا وهناك في دفاتري ورتَّبتُها جميعاً تحت عُنوانٍ اختَرتُه اسماً لي أيضاً

"شتاءٌ دافئ" وأبقَيتُه مُخبَّأً عندي لحين تحويله إلى كتابٍ ورقيّ، بدأتُ أحلم بأن أكون كاتِبة حقيقيَّة، كاتِبة لها مُحبيها في كل مكان، كاتِبة لها هدفٌ يكمنُ خلف حروفها، هدفٌ سامٍ وهو نشرُالأملِ والحب بين الناس، ومُحاربة اليأس الذي يُهاجِم الأرواح الحزينة، والدِّفاع عن حقوق أولئك المسلوبي الحياة قسراً والمظلومين والضعفاء و مُتضرّري الحروب.

بعضُ الأصدقاء يمتلِكون أداتهم الخاصة لِكسر اليأسِ والخمول المحيطِ بِنا لإخراج بِذرةِ الأملِ المُختَبئة في أعماقِنا وزرعِها وإنباتِها بشكلٍ يتناسَبُ مع أحلامِنا ورغباتِنا، بعضُ الأصدقاء يمتلِكون المفاتيح السِّرية لِفكِّ أبوابِ اليأسِ الرَّامِيةِ بنا في أقاصي الحزن، وإهداءَنا سعادة مُغلَّفةً بِالأمل.

هؤلاء فقط من يستحِقون الحبَّ، وأحياناً يكون الحبُّ قليلاً جدًا على قلوبهم.

عبر شاشةِ التِّلفاز في المنفى شاهدتُ انهِيار الوطن ودمارِه وموتَ أبنائه وتشرُّدهم في بِقاعِ العالم أجمع كلاجئينَ وهاربين وطالبي الأمان والسلام ولا شيء سِواهما، شهِدتُ دموعهم وبكاءهم، وأحلامهم التي لم تعُد تتجاوز رغيف خبزٍ وكأسَ ماءٍ نظيف!

شعرتُ بِذُلِّهم وانهيارهم، أحسستُ بهم وبِكلِّ مآسيهم، وشعرتُ بالعجزِ تِجاههم.

لم أجد سوى أن أقتلَ ذاك الشعور بالكِتابة عن وطنٍ ينهار وشعبٍ تائهٍ في الدمار!

شعبٍ طلب يوماً حريَّةً وأمناً وسلاماً، فثارَت عليه حِمَمُ الحروبِ بِبراميلِها ومدافِعها وطائراتها وسمومها الكيماويَّة لِتخمِد تلك الأصوات التي خُذِلَت من الجميع تعلو بِوجه الموت والحربِ مُكبِّرةً مُتحدِّيةً العالمَ أجمع

((ما لنا غيرك يا الله!))

ومن لهم سواه فهو القادِر المُقتَدِر والمُنتقِم لِكلِّ نفسٍ قُتلَت أو عُذِّبَت ظُلماً دون ذنب!

رُحتُ أُحوّلُ مآسيهم إلى كلماتٍ وحروفٍ بِنيَّة التأثير على عقول وأحاسيس من يستطيع فِعل شيءٍ لهم، فأنا لا يسَعُني فِعلَ شيءٍ سوى الدعاء والتَّضرُّعِ للهِ من أجلِ أن ينصُرهم، ويَرُدَّ لهم كرامتهم، وأن أُشهِر سلاحي الصغير بوجهِ المُتخاذِلين ليَروا ما يعيشه أولئك البائسين من موتٍ وظلمٍ وذلٍّ وانهِيار.

كتَبتُ مرَّةً عن مُخيماتِ الموت التي نُصِبَت على حدودِ بعضِ البُلدانِ العربيَّة منعاً للأَجئين من دخولِ أراضيها:

((في ظلامِ الليلِ يبكون صمتاً، ويصرُخونَ ألماً

بردٌ قارِصٌ يَلُفُّ أجسادهم الضعيفة

هُناك في مُخيَّماتِ الموت!

تجلِسُ تِلك الأمُّ الحزينةُ مكسورة الخاطِر، مجروحة القلب

دِماؤها تسقُط دموعاً من عينَيها ألماً وحسرةً على ما يُعانيه أطفالُها

هناك في مخيَّمات الموت!

طفلٌ يصرُخ صامتاً لا أحد يريد سماعَ صُراخه

مع أنَّ صوته يملأ العالم دويًّا عاليًا

يصِل أقاصي الأرض:

أشعر بالبرد!

أين أمي؟

أين أصبح والدي؟

إخوتي!

تركتُهم في بلدي، أتُراهم أحياء أم نامت أرواحهم بسلام؟

بيتي!

أظنه باتَ ركاماً تطيرُ فوقه طيورِ الدمارِ والخراب

هناك في مُخيَّماتِ الموت!

عطشٌ قاتِل يكادُ ينال من تلك الطفلة الصغيرة مُشقَّقةُ الشِّفاه هزيلة الجسد

يَسرِقُ منها حقّاً من أبسطِ حقوقِها، الحياة!

هناك في مخيمات الموت!

موتٌ بطيءٌ يخطِفُ طفولَتهم

وهناك في مخيمات الموت!

أفلامٌ دراميَّة أبطالها "أطفال المخيمات"

والعالمُ هو المُشاهِد))

هم يبيتون تحت أكوامِ الثُّلوج في خِيامهم

أين نحنُ ممَّا يشعرون به من آلام؟

ربما كان أحدهم مَيتاً في خيمتِه بسببِ بردٍ ينهَشُ جسده، ولا أحد يعرف به، فيموت ذليلًا ضعيفًا ووحيدًا!

وقد يكون أحدهم فقد صوته بعد صُراخٍ طويلٍ ولم يسمعه أحد!

ثمَّة رضيعٌ تحوَّل لِقطعةٍ مُتجمِّدةٍ لا حِراك فيها ولا حياة!

مَن يرضى بهذا الوضعِ لِطفله؟

وثمَّة طفلةٌ تَئِنُّ وجعاً يكادُ يُوقِفُ دقَّات قلبِها!

مَن قد يتحمَّل ألماً قوياً كهذا؟

وهناك أطفال قد التصق بطنُها بِظهرها من شِدَّة الجوع!

مَن يقدِر على تحمُّل جوعٍ حقيرٍ كذاك؟

هناك الكثير من القصص والحالات الصَّعبة التي قد لا يستوعِب حدوثها أحد،

وليسَ لِأيٍّ مِنَا القُدرة على تحَمُّلِها، ولكن.. هم يعيشونها كلَّ يوم!

ويصرخون ألماً بسببها كلَّ لحظة!

أين نحنُ من كلِّ هذا؟

أين نحن من دمعة أُمٍّ ترى أطفالها يموتون ولا تستطيع عملَ شيءٍ لِأجلهم؟

أين نحن من صرخة طفلٍ يُقاوِم موتَه ويتحمَّل بردَه بِجسدٍ نحيلٍ مريض؟

أين نحن من أبٍ يسمعُ بكاءَ أطفالِه الصِّغار كلَّ يوم؟

"أبي

أفقدَنا البرد الشعورَ بِأجسادِنا!"

وهو ذاته لا يقوى على تحمُّل برده!

أين نحن من خيمة قُماشِيّة ليس لها أيُّ فائدة سوى أنَّ اسمها "خيمة"؟

أين نحنُ مِن شعبٍ يفقِد حياته برداً وجوعاً في زمن الأسلِحة والقذائف؟

أين نحن من شعبٍ يُبادُ في خِيامٍ داخِل الوطن العربي؟

الذين قالوا عنه يوماً بأنَّ:

"بِلاد العربِ أوطاني"

وأضافوا عليها أنَّ: "العرب إخوة"

أيُّ أخوَّةٍ يتحدَّثون عنها والشَّعبُ السوريُّ في المخيَّمات؟

لا حياة في بلادِ العرب!

أقصِد من كانت يوماً بلاد العرب!

يبخَلون على إخوتِهم بِمسكنٍ دافئٍ وغِذاءٍ وحياةٍ هادئةٍ كريمة

ويكذِبون على أنفسِهم بِعروبتِهم!

بريئون نحن من عروبتِنا إن كانت ستَسلِب مِنَّا إنسانيَّتنا كما سلبتها إخوتنا العرب!

هُناك في مخيمات الموت تجمَّع أطفال حولَ كومةٍ صغيرةٍ من الحطب المُحتَرق تكادُ لا تُدفِّئُ نفسها على أملِ أن يحظَوا بِبعض الدفء!

ولكن هيهاتَ لِأجسادِهم الصغيرة التي نهشها البرد أن تشعر بشيءٍ بسيطٍ منه!

مطلبُهم الوحيد العيشَ بِسلامٍ ولا شيء سواه.

وفي مخيماتِ الموتِ أيضاً رسمَ أحد الأطفال حلمَه المُكوَّن مِن "منزلٍ" على جدار!

آلَمني حلُمَه البسيط وحمدتُ الله على تلك الجدران التي تلُفُّني، فقد باتَت حلمَ الكثيرين الآن.

أخبرتُه بِرسالةٍ سرِّيَّةٍ مليئةٍ بِالأمل والثقةِ بالله على أوراقي:

"ستكونُ حقيقةً تلكَ الأحلام التي رسمتَها على جدران مُخيِّلتِك،

لا تقلق يا صغيري، غداً ستسطُع شمسُك ويعلو صوت انتِصارك.

لا تنتظِر منهم شيئاً، فقط ثِق بِخالِقك!"

في المُخيماتِ ثمَّة طفلٌ يُمسِك أيادي إخوته ويُخبِرهم بأن:

"لا تتركوا يديَّ إخوتي!

فأنا لم أعد أثِق بِمن حولي في هذا العالم النائم

وقد بِتُّ أخاف الوِحدَة داخل هذا المخيَّم الذي يعجُّ بالمآسي والآلام

دعوني أكتفي بِسعادةٍ تكمُن بِقربكم

وبِضحكةٍ ألمحُها في وجوهِكم وإن لم تكن حقيقية!

لا تتركوا يدي إخوتي!

فالعالم مُظلِمٌ وظالِم بِتَخلّيهِ عنَّا، وأنتُم أملي الوحيد بعدَ ربّي لِأبقى مُتماسِكاً"

يالَ أحلامهم الصغيرةِ والبسيطة!

يال قوَّتهم وقوةِ إرادتهم!

كيف لهم أن يبتَسِموا وسط ظروفهم الصَّعبة التي لا يُطيقُ تحمُّلها بشر؟

ربَّما هو الإيمان بالله، وحده القادِر على خلقِ ابتِسامةٍ وسط الهلاك.

على شاشة التلفاز شاهدتُ رجُلاً يصرخ من وسط دموعه:

"يكفي!

نريدُ العيش بِسلام، نريد أن نحلُم، نريد أن نشعُر بالأمان.

نريدُ أرضنا، سوريَّتَنا!

نريد دموع مَن بكى قهراً، نريدُ دعواتٍ طاهِرة لِأمهاتنا الباكِيات المؤمنات

نريد ضَحكات شبابِنا وأحلام بناتِنا

نريدُ أن نعيش بدون حربٍ!

بدون دِماء، بدون دموعٍ وآلام!

بدون قهرٍ ويأس!

نريدُ لِلطفلِ أن يدفأ ويشبع ويحيا بسعادة وأمان

نريد لِلموت أن ينتهي، ولِلغيمة السوداء أن تزول

ولِلحرب أن تُلَملِم أسلِحتها وطائراتِها ودمارها وبؤسَها وكل ظلمٍ وذلٍ سبَّبتهُ لأبناء شعبنا، وترحل بعيداً

حيث لا اسمٌ لها ولا وجود!

نريدُ لِلغربة أن تتركنا وشأننا نعيش ونسعَد على أرضِ الوطن، نريد أن نعيش بِسلام"

عُذراً منكَ يا عم!

فهم لا يَرَون دموعك، ولا يسمعون صوتَ صراخك

عذراً منكَ يا عم!

هم لا يشعُرون بِبردٍ يفتِكُ بجسَدِك وأجسادِ أطفالِك الصغار وأطفالِ المخيَّماتِ والمناطِق المُدمَّرةِ جميعاً

عذراً منكم يا أطفال وطني الصِّغار!

ضمائرهم أصغر من أن تستوعِب حاجتكم لِلدِّفء، وأضعفُ مِن أن تشعُر بِأوجاعِكم

عُذراً منكم أبناء وطني المغترِبين في خِيام!

عُذراً منكم أبناء وطني المُحاصَرين في الأراضي المُدمَّرة!

وما يُفيدُكم الاعتِذار وأنتم الضحايا المُتضرِّرة وسط عالمٍ يعُجُّ بالضَّمائر الميِّتة؟

وأنا التي لا أملِكُ سِوى قلمٍ أعتذِر به منكم عن عديمي الإنسانيَّة

فكرِّ بغيرك

وجدتُ في القراءة عالماً من حياةٍ فقررت ملء وقتي مع الكتب والغوصَ في بحار المعرفةِ وسحرِ الحكايات ورقةِ الكلمات، فاستطَعتُ انتِشال ذاتي من بؤرةِ اليأس والضِّيق والفراغ القاتل الذي سيطر على حياتي.

قرأتُ لِكثير منَ الكتَّابِ والشُّعراء، منهم من تأثَّرتُ بهم وبأفكارهم الممزوجةِ في كِتاب، منهم مَن أحبَبتُ أبطال رِواياتِهم، ومنهم من تعلَّمتُ مِنهم أن لا وجود لِليأس أبدًا، إنما هو وهمٌ نُقنِعُ به ذواتنا الباحِثة عن سببٍ لتقِفَ وتستسلم.

لا وجود لِلضعف، ولا وجود لِشيء اسمه "لن أنجح".

أثارَت انتِباهي قصيدة لِلشاعرِ محمود درويش، شعرتُ بِأنَّها تحكي واقِعنا.

واقِعٌ بغيضٌ فرَضَتهُ علينا تلكَ الحربُ الهوجاء!

لامَسَت قلبي إذ أنها رسمَت بخيالي صورة من يسكنون الخِيام ويتحمَّلون كافة المشاقِّ والصعوبات، ورسمَت بخيالي أولئك الذين يبحثون عن رشفة ماءٍ تسدُّ عطشَهم، وعن رغيف خبزٍ يقتلُ جوعهم.

تذكرتُ أولئك الذين عبَّروا عن رفضهم لِلذلِّ والهوان، الذين طالبوا بحقوقِهم، ودافعوا عن أرضِهم ووطنِهم حين ردُّوا على طلبهم بمدافِع وطائرات موتٍ تنشر الرعب في كل مكان.

تقول القصيدة:

"وأنتَ تُعِدُّ فطورك، فكِّر بِغيرك

لا تنسَ قوتَ الحمام

وأنتَ تخوض حروبك، فكِّر بِغيرك

لا تنسَ من يطلبون السَّلام

وأنتَ تُسدِّد فاتورة الماء، فكر بِغيرك

من يرضَعون الغمام

وأنتَ تعودُ إلى البيتِ، بيتِكَ، فكِّر بِغيرك

لا تنسَ شعبَ الخِيام

وأنت تنامُ وتُحصي الكواكِب، فكِّر بِغيرك

ثمَّة من لم يجِد حيّزاً لِلمنام

وأنتَ تُحرِّرُ نفسَك بالاستِعارات، فكِّر بِغيرِك

مَن فقدوا حقَّهم في الكلام

وأنتَ تُفكِّر بالآخرين البعيدين، فكِّر بِنفسِك

قُل: ليتَني شمعةً في الظلام"

ليتَهم يستطيعون التفكير أو حتى مُراعاة من يطلبون السلام،

مَن يموتونَ قبلَ الأوان، من ينامون عُراةً تحت السَّماء بِخيمةٍ فقيرةٍ إلاَّ مِن بردٍ يفتِكُ بالأجساد،

مَن يموتون جوعاً في حربٍ كلُّ مَن يخوضها لا يملِك إلاَّ مصالِحه، فيَسعَى إليها بِكلِّ ما أوتِيَ من قوةٍ، مُتناسيًا أولئكَ الضعفاء الذين يُقتَلون ويعيشونَ أصعبَ و أقسى الظروف بِلا أيِّ ذنب، ويُضَحِّي بِأرواحِ شعبٍ لم يطلُب سِوى السَّلام.

ليتَهم يسطيعونَ سماعَك يا درويش، ليتَهم!

ولكنَّ آذنَهم مُغلَقةٌ بِصمغِ مصالِحهم العمياء التي لن ترى أولئك الذين يدفعون الثمن

ماتَت قلوبُهم وأحاسيسهم وإنسانيَّتِهم، وماتَت معها ضمائرُهم!

عيونُهم لا ترى سِوى السَّراب

تلك الدِّماءُ التي تُغطِّي أرض سوريا، أغمَضوا عنها الأعيُن والأبصار والبصائر!

وذاكَ الصُّراخ الذي ملأ الدنيا بكاءً واستِنجاداً، سدُّوا عنهُ الآذان!

هناكَ طفلٌ يئنُّ ألماً، ينهَشُ البردُ جسَدَهُ لِيُحيلَهُ جثَّةً لا حراكَ فيها، وهُناكَ رجُلٌ يصرُخُ حامِلًا بينَ يديهِ جُثَّة طفلِه، وبِجانبهِ طفلهُ الآخر يلفُظُ أنفاسَهُ الأخيرة لِيُعلِن الرَّحيل!

وهناكَ طِفلةٌ تُقَبِّلُ يدَ أُمِّها الباردة وتبكي نادِبةً:

"لِماذا تركتِني هنا في عالمٍ يَفتقِر إلى الأمان؟"

وهناكَ، وهناكَ، وهناكَ..

ولكن، من يسمَع ويرى؟

الجميع أموات!

ووحدهُم من يتألَّمون هم الأحياء!

يالَ وقاحة الحروب!

تجرَّأت استخدام أسلوبَ التَّجويعِ لِقتلِ الطفولة والحياة!

أَلم يُخبِرونامن قبل بأنَّ لِلحروبِ أسلِحةً مِن حديد؟

مِن أينَ أتَوا بِصَيحَةِ التَّجويع هذه؟

أَلِلموتِ والقتلِ أيضاً موديلاتٌ جديدة ومُتَنوِّعة؟

ربَّما هي أساليبٌ جديدةٌ لإذلالِ ذاك الشعبِ الذي تجرَّأ وطلبَ حقوقَه المسلوبة، ولم يتنازل عنها رغم كلِّ ما فعلوه به من قتلٍ وتدميرٍ بِكافة الطرقِ والأساليب.

ولكنَّ شعباً يؤمِنُ بأنَّ ربَّ العِبادِ جميعاً معه لن يستسلِم أبدا!

تغافلوا عن الأرقامِ الهائلةِ لِلضحايا الذين ماتوا على أرضِ سوريا، وعن الأرقام الهائلة الأخرى لِلضحايا الذين ماتوا خارج سوريا إما في المخيمات الباردة يعيشون الموتَ بِكافة أشكالِه وأنواعه.

برداً، جوعاً، عطشاً، حرقاً، وفوقها الأمراض المُستعصيةِ والخطيرة المُتنوِّعة جرَّاء الظروف المعيشيَّة الغير قابلة لِلعيش أصلاً!

أو غرقاً وهم على طريقِ الهروب لجوءً إلى الدولِ الأوروبيَّة خوفًا بعد أن أغلَقَت الدول العربيَّة الأبواب في وجوههم!

ويصنعون أيضًا أرقامًا هائلةً جديدة لِضحايا جوعٍ داخل الوطن المُمزَّق.

وكأنه زمن لِعبة الأرقام الهائلة!

أيُّ فئةٍ من الأرقامِ قد تكون الرابحة؟

إنَّ صُنَّاع الحروبِ يقتاتون من دماءِ الأبرياءِ و أرواحهم، يحشُرون عقولَهم الدنيئة بالأسلِحة والتدمير، أما عم القتل والإذلال يُعدَّانِ أسلوب حياةٍ بالنسبة لهم!

لِيصلوا إلى أهدافهم عليهِم أن يدوسوا على القِيم الإنسانية، وألاَّ يسـألوا أنفُسَهم عديمةَ الرحمةِ والشفقة:

"بِأيِّ ذنبٍ قُتِلَت"!

يسألُ صحافيٌّ لِأحدِ القنواتِ الإخباريَّة على أرضِ سورية طفلٌ:

"ماذا تريد؟"

فيُجيبه الطفلُ وعيناه في الأرض من شدَّة الخجل:

"منذ ثلاثة أيامٍ لم آكل شيئاً من الطَّعام، ولا حتى كِسرة خبزٍ واحدة!

أنا أخجل أن أطلُب منكَ يا عم، ولكني لم أعد أستطيع تحمُّل ألم معدتي الخاوية

أنا جائعٌ، ألديكَ كِسرَة خبزٍ أسدُّ بها جوعي؟"

وبعدها يبدأ نوبة بكاءٍ عميق، ذاك الطفلُ الذي يملِكُ عِزةَ نفسٍ تفوقُ عزَّة نفس العربِ جميعاً يطلُبُ كِسرة خبزٍ من صحافيٍّ غريب بعد أن تحمَّل مدة ثلاثة أيامٍ جوعاً قاهِراً.

بكى خجلاً وحسرةً، أَوَصلَ به الحال لِأن يطلبَ من غريبٍ وهو الذي لم يطلُب من أحد يوماً سِوى أبوَيه اللذَين من المؤكَّد أنهما أيضا بِلا طعام!

والغريبُ بالأمرِ هو أنَّ الصَّحافيَّ ذاته لا يملِكُ طعاماً!

أيُّ حالٍ وصل إليه أبناء شعبي؟

هذا هو حالُ أغلبُ صحافيِّي بلادي لِلأسف، يُغامِرون بِأنفسهم وكامِيراتهم من أجلِ أن يرى العالم ما يحصُل، ولكن لا حياة لِمن تُنادي.

من يستطيعُ تحقيق ذاكَ الحلم البسيط لِذاك الطفل؟

مَن لديه الوقتُ الكافي لِتحقيق حلمٍ سخيفٍ كهذا؟

من يستطيعُ تهدِئة معدةِ طفلٍ جائع لم يطلب شيئاً سِوى كِسرة خبز!

لم يطلب شيئاً من الأطعمة الفاخرة، ولم يطلُب شيئاً مُستحيلاً، كِسرة خبزٍ فقط!

ألم يعد هناكَ من يهتمُّ بالإنسانيَّة ولو بمجرَّد الاهتمام؟

أيُعقَلُ بأنَّ الأمة العربيَّة والإسلاميَّة انحدرَت لِهذه الدرجةِ من الدَّناءةِ وعدم الشعورِ بالمسؤولية؟

ذاك الطِّفل الذي لم يتذوَّق الطعام طيلةَ ثلاثةِ أيامٍ يخجلُ أن يطلُبه حتى، والعرب وإنسانيَّتهم الغائبة عن الوجود عاجزين عن سدِّ رمقِ جوعه دون أن يشعروا بشيءٍ من الخجلِ أو تأنيبِ الضمير!

إنهم يُشاهدون ما يحصُل على أنه فيلم ينتهي بِموتِ البطل جوعاً أو برداً أو قصفاً أو أيَّا كانت الطريقة،

سيتَّهِم البعضُ الفقر بالجريمة، والبعضُ الآخر سيتَّهم الشتاء، وربما ينتهي النِّقاش باتِّهامِ البطلِ الميِّت ذاتِه!

سينتهي المشهد ويذهبُ كلٌّ إلى ترفه ورغدِ عيشِه وعمله غيرَ مُبالين بأنَّ القاتِل الحقيقي هو ضمائرُهم النائمة، ومشاعرهم المُصطنعة.

ألم يُخبرهم أحدٌ بأنَّ صمتَهم مُشارِكٌ في الجريمةِ أيضاً، وبأنَّ التاريخ سيكتُب كلَّ شيء؟

وماذا لو أخبرتهم بالحقيقة الأقوى:

بأنَّ كلَّ مُتخاذِلٍ وكلَّ من يدَّعي أنَّه يسعى لِوقفِ الحربِ وهو لا يسعى سِوى خلف مصلحةٍ مُضمرةٍ في صدرهِ المريض هو قاتلٌ أيضاً!

يستَفِزُّني أولئك الذين يُقيمونَ الولائمَ والموائِد الكبيرة مِن أجلِ المُفاخرةِ والمُباهاة أمام الآخرين من مثلِ طبقَتِهم فقط!

وكأنهم في سِباقٍ لِلأفخرِ مائدة والفائز ينالُ احترام البقيَّة وثناؤهم وإعجابهم!

وعِندما ينتهون مِن طقوسِهم تلك بإشباعِ غريزةِ الفخرِ والانتصار المؤقَّت يرمون بكلِّ تلكَ الموائد التي ما استَهلكوا منها إلاَّ القليل في الحاويات عشاءً دسِماً لِقطَطِ الشوارِع الجائعة وكلابها، فتتناولُ منها وتملأ بطونها وتشبع دون أن ينتهي ذاك الطعام المُلقى في الحاوِية فتعود إليها كُلَّما جاعَت!

الغريب في الأمر أنهم كلَّما انتهوا من حفلٍ أقاموا آخرٍ بِنفسِ حجمه ومَباهِجِه وربما أكثر

وكلَّما أقاموا حفلاً أعَدُّوا الولائمَ لِأجلِه، وكلَّما انتهوا من طُقوسِهم رموا بِما بقي من مائدتهم الكبيرة في حاوِياتِ أحيائهم الفاخرة.

وكلَّما شبِعَت قِطط وكِلابُ تلكَ الأحياء سخِرَت من سذاجة عقولِهم وشكرَت جهلَهم وبذخهم!

على شاشةِ التلفاز شاهدتُ الكثير من هؤلاء المُصابين بِمرض " الأُبَّهة والغِنى الفاحِش "

وتساءلتُ في ذاتِ نفسي:

ألم يسمعوا يوماً عن المجاعاتِ الحاصِلةِ في العالم؟

ألم تصِلهُم أخبارُ الحروبِ وقِصَصُها التي تعُمُّ أجزاءً من الوطن العربي وتنشُرَ فيه فقراً وجوعاً وموتاً؟

ألم يعلموا بأنه ثمَّة مُخيَّماتٌ أُقيمَت على حدود بِلادٍ عربيَّة تعُجُّ باللاجئين الجائعين والمرضى؟

ألا يُشاهِدونَ على شاشاتِ التِّلفاز ما نُشاهده نحن؟

أم أنَّ وقتهم الثمين في الجريِ وراء بذخِهم وحياتِهم "المُعاصِرة" لا يتَّسِع لمُشاهدةِ شيءٍ على شاشات التلفزةِ الموجودة على جُدران قصورِهم الفاخِرةِ كمُكمِّلاتٍ لِلديكور فقط؟

وتساءلتُ:

ألا تملِكُ تلك الشَّريحة من البشر أصحاب الطَّبقة الفاحِشةِ الغِنى قلوباً تتألَّم حسرة على الضُّعفاءِ والفقراءِ كقُلوبِنا نحن المنفيّين من أوطانِنا ولا نملِك سوى شعوراً بالأسى عليهم وقلوباً داعيةً راجيةً الله أن يُزيل همَّهم.

كيفَ لهم أن يرموا ويستمرُّوا بِرمي كلِّ هذا؟

ألم يعلموا أنَّ وليمةً واحدة من تلك الولائم تُشبِعُ أطفالاً يكادُ الجوع يقضي على حياتهم؟

أم أنَّ قِطط الشوارع وكلابها أحقُّ بتلك الموائِد مِن الجائعين؟

فليُقيموا ولائمهم كيفما شاءوا ولكن لِيُفكِّروا قليلاً بغيرهم، ألا يعلَمون بأنهم سيُحاسَبون على كلِّ ذلك؟

سيُحاسَبون على عقولِهم فيما لَهَت، وعلى قلوبِهم التي لم تشعُر سوى بِملذَّاتهم ومباهِجِهِم.

أمِن المعقول أنهم لم يسمعوا بالجوعِ يوماً ؟

ولم يُخبِرهم أحدٌ عن إنسانيَّةٍ أضاعوها في زحمةِ حياتِهم الفاخِرة؟

وتساءلتُ:

متى ستَصحو العقولُ الغائبةُ عن وعيِها الإنساني؟

متى ستنتهي الحرب وينتهي الجوع والحِرمانُ والموت؟

وكُلَّما شاهدتُ خبراً في التِّلفاز وجدتُهم يُقيمون المؤتمرات والاجتماعات.

مَضَت خمسُ سنواتٍ تقريباً على تلكَ الحربِ التي اجتاحت سوريا، وها نحنُ على أعتابِ السنة السادِسة!

ماتَ وتشرَّد وذُلَّ الآلاف من البشر، ودُمِّرَت بلدٌ بأكمِلِها على رؤوسِ أبنائها، وهم مازالوا يهذونَ بِبضعِ كلماتٍ أكثرُها استِفزازاً:

"إنَّنا نقلق إزاء ما يَحصل في سوريا!"

أرجوكم حافِظوا على هدوئكم ولا تفزعوا!

أخافُ عليكُم مِن القلق والانزِعاج

أخافُ على حياتِكم الفارِهة من الخدشِ أو لمسةِ حزنٍ تُسيطر عليها

حقاً، أخافُ عليكم كثيراً!

أطفالُ بلادي الذين يموتون جوعاً لا يستحِقون شفقةَ عديمي إحساسٍ و إنسانيَّة مِثلكم، لا يستحقون أقنِعةَ القلق التي تضعونها على وجوهكم لِتتظاهروا بها ليس إلاَّ!

لهمُ الله ولا حاجة لهم بِأشباهِ بشرٍ مثلِكم

ارتاحوا أرجوكم واستمتِعوا بِحياتِكم ورفاهيَّتِكم

هم لهم الله والآخرة، وأنتم لكم مظاهِركم وحياتكم في الدنيا

لا تقلقوا، سيأتي يومٌ ويُحاسَب كلٌّ على أفعالِه ونواياه، لِذلكَ هم صابِرونَ وراضون ومطمئِنون.

وأنتم، حافِظوا على هدوئكم فالقلق والخوف لا يليق بكم!

- وسط عتمةِ الحروب صرخَت الطفولة المُعذَّبة

"كفى!"

فهل هناكَ من يسمعُ النداء؟

وسط زحمةِ الواقِع المُنحدِرِ نحو الدُّنوّ والانحِطاط هتفَت الإنسانيَّة المَنسِيَّة

"ماذا فعلتُم بي؟"

فهل هناك مَن يُصغي للهُتاف؟

وسط ضبابِ الأحداث ودموِيَّتِها هتفَ قلبيَ المُرهق آمِلاً

"ذاكَ الرَّصاصُ سينتهي يوماً

وتلك البنادِقُ ستصدأُ يوماً

وتلك الحربُ زائلةٌ، فلا شيء يبقى لِلأبد

لا ظُلمٌ ولا ظلام، لا قتلٌ ولا دمار

لا فقرٌ ولا احتياج، ولا حتى اختِناق!

كلُّ شيءٍ سيَتغيَّر ويتبدَّل

وحده الأملُ ما سيبقى"

ثمَّة ياسمينة بقِيَت بيضاءَ نقيَّة عطِرة رغم الحربِ والدمار، وثمة أمهاتٌ يُنجبنَ الأطفال رغم كثرة عدد الأمواتِ والشهداء، وهناك عند شرفتي زيتونة صامِدة واقفة حتى هذه اللحظة!

كلماتُنا ستُسمَع يوماً وبالمحبَّةِ والسلامِ ستُزهِر

والوطنُ مصيرهُ أن تُشفى جِراحه ويعودهُ أهلُه يوماً، وهُناك أنا سأُشفى

ثمة إيمانٌ عميقٌ داخل قلبي يهمِسُ لي بذلك.

ينتابُني شعورٌ بالأمل كلما رأيتُ ابتِسامة طفلٍ من أطفال المآسي والفجائع والنَّكبات

تلك الابتسامة التي تتحدَّى بِسحرِ جمالِها وقوة إرادتها المدافِع والأسلحة!

وتتحدَّى الحرب والدمار وعديمي الضمائر جميعاً!

بِأنَّ الأمل موجودٌ لا يموت، وبأنَّ الحربَ راحِلةٌ عن أرضنا

وبأنَّنا سنعيش السلام بِأرضِ السلام.

- تمضي الأيَّام والأشهُر كئيبةً مُمِلَّةً في غربتي، وأذبُل كلَّ يومٍ حتى أكادُ أصِل مرحلة اليأسِ، فأتذكَّر فجأة بِأنِّي لم أخلَق لِلضعف والهوان، ولم أُخلَق لِأكون جسداً يعيشُ لِيأكل قليلاً وينام طويلاً!

لم يُقدَّر لي أن أكون مُختلِفةً عن الآخرين بمرضي لِأكون مُستسلِمة ضعيفةً خاضِعة!

لم تكن مقدِرتي على تكوينِ الكلِمات عبثاً ولا لِغرضِ التَّسلية وإمضاء الوقت فقط، ولم يُقدَّر لي أن أرحل إلى منفاي بدون سبب.

ثمَّة حربٌ مُشتعِلة تلتهِم الأطفال والنساء والرِّجال والشجر والزهر وكلَّ ما تجِده في طريقِها!

مُغتربين ولاجئين في أرجاء الأرض جميعاً سُلِبوا حريَّاتهم وحقوقهم و حُرِموا من أحلامهم وأُجبِروا على عَيشِ حياةٍ ليست لهم.

فقرٌ يحتلُّ الأوطان ومجاعاتٌ تُهدِّد حياة الكبيرِ والصغير، وضمائرٌ نائمةٌ يجبُ أن تصحوا سريعاً.

ثمَّة أشخاصٌ مثلي وُلِدوا مُختلِفين وعاشوا مُختلِفين وكلٌّ منهم كانت آلامه باختلاف وضعه الذي قُدِّر له.

بعضهم من استسلم لِحالِه ولم يجد ما ينتشِله من بؤرة ألمه وانطفاءِ أمله، وبعضهم من لم يجد من يُمسِك بيده ليأخُذه نحو الأمل بعيداً عن عالمِه البائس.

بالنسبة لي لم أستسلِم يوماً من اختلافي وضعف صحتي، ولن أستسلِم إن شاء الله!

فقد رزقني الله الكثير من الأيادي التي أثق بأني سأجدها بجانبي إن حدث يومًا وضعُفت، وبعث لي امرأةً لِتغيِّر قدري وحياتي بمجيئها، تقبَّلَت ضعفي وتحدَّت مرضي وعجزي الذي كان، وجعلَت مني ابنتها التي لم تُنجِبها، وجعلَت من نفسِها أمَاً لي، لتزرعَ فيَّ أملاً وعزيمةً وقوةً، وتسعى جاهِدة بكلِّ ما أوتيَت من إيمانٍ و حبٍّ لِتجعلني أقف يوماً وأمشي بعده بعد أن قالوا قديماً عني: "لن تتمكن من المشيِ يوماً"!

كيفَ أحزنُ ولديَّ ما ليسَ لِغيري؟

الأمل الذي سأسعى جاهِدةً لِنشرِه كعدوى بين اليائسين، بالكلِمات التي أعطاني الله القُدرة على كِتابتها، وعلَّمتني أمي كيفَ أكتبها وأرتّبها.

كلما تذكرتُ ذلك أمسحُ دموعَ خيبَتي وضعفي وأتسلَّح بابتِسامة القانِع لإرادة الله سبحانه وأنا كلي ثقةٌ بأني سأكونُ يومًا تلك الإنسانة التي تُدافِع عن كل ضعيفٍ بقلمِها، والتي تتلذَّذُ عِشقَ دمشق بالكلِماتِ، والتي تُحبُّ وتعيش قِصص عشقها وانكساراتها ونجاحاتها بترتيبِ الحروف واللعِب على أوراقٍ بيضاء، تختَلِقُ قصة هنا، وتزرع أملاً هناك، تمسح دمعةً هنا وتواسي قلبًا هناك.

ميسانة في سماءٍ مُظلمة تتلألأ تفاؤلًا وحباً وحياةً.

شِتاءً دافئاً لطالما حلُمتُ به سأصِل إليه وأعيشه بين أوراقي وربما حقيقةً، من يدري ما يخبئه لنا القدر مستقبلًا؟

كثيراً ما يختارُ لنا القدر أشياء لا نتقبّلها ولا نستطيعُ العيش ضمنها، ولكننا إن فكّرنا بِقليلٍ من الإيجابية سنجد أن هناك ما يدعو لِلتفاؤل، ربما هناك رسالةٌ علينا تأديتها، أو أن هناك خيراً سيحصل ويغيرُ كلَّ ما نعيشه إلى سعادة ما كُنا نتخيَّل حدوثها قبل ذلك.

الأمر فقط يتطلَّب رضاً وإيماناً وكثيرٌ من التفاؤل، فالله لا يُحدِثُ أمراً إلاً وبه خيراً كثيراً بإذنه.

سيبقى الأمل ينمو ويكبر داخل كلِّ قلبٍ هشَّمَتهُ الحربُ والغربة، بأنَّ النور قادِمٌ والعودة حتميَّة

فالظلام تُبدِّده خيوط شعاعِ شمسِ الصباح

والياسمين مازال نقيًّا رغم الحربِ والدمار

وشجرة الزيتون مازالت واقفة هناك مُقابِلة لِشرفتي تنتظِر عودتي ذات سلام

صباح الخير أيها العالم الصامت!

نكذبُ على أنفسِنا كثيراً عندما يسألُنا البعض عن حالِنا قبل أن نكذِب عليهم ونُجيبهم أننا بخير!

سيُصدِّقونك حينها ورُبما يسعدون لِأجلك

ستتماشى معهم وتبتسِمُ وكأنك فعلاً بخير

وما إن يبتعدوا عنك وتبقى وحيداً تكتشِف ذلكَ الزيف الذي كُنتهُ أمامهم.
ستبدأُ الذكرياتُ تتوالى تِباعاً ويبدأ الحُزنُ وربما البكاء، وستمُرُّ ببالِك لحظةً كانت من أجملِ اللحظات في حياتك

تلك اللحظةُ الوحيدةُ التي كنتَ فيها تتأملُ البدرَ جالِساً على قاسيونَ وأنتَ تحتسي مشروبك المُفضَّل

اللحظة التي ذهبتَ بخيالِك فيها صوبَ النجوم مُحاولاً الوصولَ لِلقمر!
وقبلَ الوصولِ تتبادَرُ إلى سمعك جملة: "حان وقت العودة"
باللهِ عليكم دعوني هنا لِوقتٍ أطول فرُبما تكون هذهِ الأخيرة!
تأملوا معي دمشقَ المتلألئة ليلًا بأجمل الأنوارِ والألوان، تكادُ تكونُ تُحفةً نادرةَ الوجود، وهي فِعلاً كذلك.
يا قاسيون..

لقد كانتِ الأخيرة حقاً!
يا دمشقَ العشقِ هل نحن عائدون؟
وهل ستنزِعين عنكِ ذاك الرّداء الأحمر المُطرَّزِ بالأحقاد والحروب يومًا؟
تبكي ندماً على ذلك اليومِ الوحيد، وتنغَمِسُ في نوبةِ شوقٍ حارِقٍ تكادُ تُفقِدكَ صوابكَ وتوسِعكَ ألماً وأنيناً،
تغُطُّ في نومٍ عميقٍ يكادُ يكونُ كالموتِ بِلا حراك، تحلُمُ بالرجوع وعندما تستيقظُ يصدِمُك الواقع

تصدِمُك الأريكة وشاشةُ التلفاز التي سهِرت وحيدةً تستعرِضُ أخبار من ماتَ ومن عاش، ما تهدَّمَ وما مُسِحَ من خريطةِ الوطن!
تصدِمك لقطةٌ لِطفلٍ يصرُخ مصروعاً من هولِ المصيبة
لقد فقدَ قدَمَهُ وعائلته دُفعةً واحِدة!

لا تعلم إن كان صُراخه على فقدان عائلته أم على إعاقته الجديدة!
كيف سيعيشُ طفلٌ حديثُ الإعاقة بلا أهل؟
ترفعُ يديكَ ونظركَ إلى السماء بِلا حولٍ ولا قوةٍ وتصرخُ أنتَ أيضًا:

يا الله!
تبكي حسرة وعجزاً لأنك لن تستطيع فعل شيءٍ.
تُطفئُ تِلفازكَ وتهمِس:
صباحُ الخير أيها العالمُ الصامت!

مهزلةُ العالم

لا أعلمُ بِمَّ سَتُفيدُ كتاباتي أولئكَ الذين يموتون ظُلماً ضمن سلسلةٍ مُتواصِلةٍ من المجازر المُروّعة

أولئكَ الذين تُسلَبُ الحياة منهم عُنوةً دون سابق إنذار!
حتى تصِلَ لِدرجةِ أن يُسحبُ عنهم الأوكسجين الذي يتنفَّسونه لِلعَيشِ كَنَوعٍ من الانتقام

ولكن الانتِقامُ مِن مَن؟
من أطفالٍ أبرياءٍ لا يعلمون شيئاً في حياتهم سِوى أنّ حرباً لا شأن لهم بها سلَبَتهُم حقَّهُم الشرعِيَّ في اللَّعِب؟
أتساءلُ دوماً:

ما الجريمَةُ التي ارتَكَبها أولئك الأطفال حتى تَتِمَّ مُعاقبتهم بهذا الشكلِ البشِع الذي قد لا يَحتَمِلُه عقلُ إنسان؟
أحدُهم نطقَ بإجابة:

إنَّهم ارهابيون!

ماذا؟

ماهذا المنطِقُ وما هذه التفاهة؟

أطفالٌ و إرهابيون!

من أين لهم بهذه التُّهمة الغبيَّة، وما حاجتهم بها؟

من أين جئتُم بهذه النتيجة الساذجةِ المُبتذلة؟

إنهم ملائكةٌ صِغارٌ لا يفقَهون شيئاً عن القتل وعالم الجرائم المُتقلِّب

العالمُ الذي لم يعُد يفهمُ سوى لغةِ الحروب!

أحدٌ آخرَ نطقَ أيضاً بإجابةٍ أقربَ ما تكونُ من المهزلَةِ وربما الحماقَة،

قال:

أنتم من تفعلونَ هذا بأبنائكم بغيةَ استِعطافِ العالم كي تُحققوا نصركم!

أيُّ مُتَحدِّثٍ هذا، وأيُّ عقلٍ يملِك؟

هل توحي ملامِحُ هذا الرَّجُل الذي يحمِلُ توأمهُ الوحيد بينَ يدَيهِ فاقِدَين الحياة بأنه هو من رماهما بِغازٍ سامٍ،

وخنَقهُما حتى الموت بملْءِ إرادَته؟

هل تُخبِركُم ملامِحه المُنكَسِرة بأنه ينتظِرُ استِعطافاً من عالمٍ أقلُّ ما يُقالُ عنهُ أنه مُتخاذِل!

أخبِروني، إذا كانَ هؤلاءِ يَملِكون غازاتٍ سامَّةٍ أصلًا!

أليسَ من الأجدرِ بهم رميَها على قاتليهِم والانتِقامَ لأنفسهم وأولادهم وأبناء مدينتهم؟

لِلأسف

باتَ عالمُنا غارِقا بمهزلةٍ كبيرة!

من يُقتَلُ ظُلماً يُتَّهم بالظلم!

الضعيف الذي لم يعُد يملكُ من أمرهِ شيئاً أصبحَ سفاحاً!

وأولئك الذين يسرِقون الأرواح والحياة باتوا هُم الذين على الحق!

ثُم ماذا بعد يا فُقراءَ الضمير والإنسانيَّة؟

اللهم إنَّا نُعلِنُ براءتنا من كلِّ مُتَحدِّثٍ فاقدٍ لِعقله!

اللهم وما لنا سِواكَ نوراً تُطفئُ حرباً أشعَلها شياطينُ الأرض!

أعلمُ جيداً أن كتاباتي لن تُفيدَ تلك الأجسادَ المتراكِمة اختِناقاً أسود

لن تُعيدَ أرواحهم إليهم ولا حتى حقَّ من استطاع النجاة بروحِه أن يستمتع بالحياة،

لكنَّ كل تلك الأحداث تستَفِزُّ نفسي الغاضِبة لِأن تكتب!

وأنا العاجِزة عن فعلِ شيءٍ سوى أن أصُبَّ غضبي حروفاً على الأوراق علَّها تتمكَّنُ من إعادةِ العقولِ لأصحابِها يومًا، علَّها تُشفي غليلي وعجزي عن القيام بأيِّ شيءٍ لإيقافِ تلك المهزلة.

أوجعتموني يا عرب!

آلمتموني ياعرب!

ألهبتُم جرحيَ النَّازِف من جديد، ذاكَ الجرح الذي لم يلتئم يوماً!

أوجَعتُم ذاكَ الطفلَ في صدري وبتَرتُم ذاكَ الحُلمَ المُختبئَ في قلبي

عذبتُم روحي وبِتعذيبِكُم أرواحَ أولئكَ الهارِبينَ من موتٍ وقهرٍ إليكُم أجهَزتُم عليها

فما عادَ باستِطاعَتي سِوى التحدُّث عن خذلانِكم ولا مُبالاتِكم

وما عاد لي سِوى قلمي أصرُخ به استِياءاً وألماً.

أوجَعتُموني يا عرَب!

جعلتُم الصَّحراء المُقفِرةَ ملاذَ أبناءِ بلادي الذينَ لجؤوا لأحضانِكم آملينَ الأمان ولا شيء سِواه

وضيَّقتُم أرضَ اللهِ الواسِعةَ عليهِم فوقَ ضيقِ صدورِهم وقهرِهم!

هكذا قالت شاشة التلفازِ اللَّعينةُ التي ما انفكَّت تعرِضُ أخبارها وصوَرَها المُخزِيةِ التي تنخُرُ في القلبِ ألماً لا ألمَ بعده.

وهل من ألمٍ أقسى من أن ترى أبناء وطنِكَ يُعامَلون بقسوةٍ من إخوانِهم العرب!

تساءلتُ بضيقٍ بعد هذا الخبر:

أأنتم بَشَرٌ حقاً، أم أنكم مجرَّد أجسادٍ بلا قلوبَ ولا مشاعِر تدوسُ على أجسادِ الضعفاء بغيَةَ هدف حقيرٍ ليس إلاَّ "مصالحي ومكانتي وربما كُرسيٌّ أيضاً!"

سلامٌ عليكُم أبناء بلادي التائهين في أرجاء الأرضِ التي قالوا عنها: "بلادُ العربِ أوطاني!"

أجيبوني:

أيُّ وطنٍ ذاكَ الذي يطرُدُ من احتمى به طالِباً أمناً إلى صحراء؟

أمن أحدٍ يُخبِرُني من يقوى العيشَ في الصحراء غير من اعتاد عليها؟

وأتساءلُ في سِرّي:

أيكون الموتُ قد حاصَرهُم هناكَ على هيئةِ قوانين وأنظمةٍ يطردون بها الضعفاءَ من أراضيهم حتى يتَسَنَّى له التَّلذُّذ بِسلبِ أرواحِهم بِطريقةٍ مُختلِفةٍ عمَّا هو الموتُ في سوريا؟

حيثُ لا صوتَ يعلو صوتَ البراميلِ المُتفجِّرةِ والرّصاص

ولا رائحةَ تفوقُ رائحةَ الدمِ والغازاتِ السَّامَّةِ القاتِلة!

على كل حال، لم يكُن ذاك السؤال إلا فكرةً طرقَت تلافيف عقلي وظلَّت تروحُ وتجيءُ متوتِّرةً حتى استفزَّتني لأكتُبها، وفعلت!

سلامٌ عليكُم أبناء بلادي التائهين في أرضِ اللهِ الواسِعةِ ولا سلامٌ على من سلبَها منكم وضيَّقها وما رحِمَ.

مِسكينٌ هذا العالم!

من هُنا، من هذه الغرفة الصغيرة التي أسمِّيها قوقَعَتي أرى العالمَ لا يتغيَّر حدَّ أنه يأبى السلام!

يُغلِقُ ستائرَهُ عند كلِّ إشراقٍ وينزَوي في الظَّلام

يُتَمتِم بغيظٍ كلماتٍ كلَّما حاولتُ فهمها تعقَّدَت الحروف بازدِياد

ويُبرِّرُ دوماً أفعالَهُ القاسِية بأسبابٍ واهِية.

سادَهُ الفقرُ منذ أمَدٍ بعيد ولبِس الأجساد النحيلة التي تكادُ تكون هياكِلَ عظميةٍ تتحرَّكُ لولا طبقةُ الجلدِ عليها، أجزاءَ شاسِعة منهُ!

تمادى فيه أصحاب الكروشِ المُمتدة أمامهم في طمعِهم والرَّكضِ خلف مصالِحهم وصمِّ إدراكِهم وحواسِّهم عن أولئك الجائعين

تغاضى عن سماعِ أصوات المنكوبين والحائرين الذين يحملون على ظهورِهم ما يكادُ يهدُّهم من همومٍ وأكاذيب وقسوة،

وتجاهلَ كلَّ شيء عَمَاً مقصوداً

وأخيرًا تظاهر بالقلق!

من غرفتي الصغيرة أتساءل:

ماذا قد يُفيدُ القلق؟

كيفَ سيُطعِمُ تلكَ البطونِ الخاوِية وبأيِّ ماءٍ سيسقيها؟

بماءِ التُّراب الممزوجِ بالكثيرِ من الأوساخ والذي تحوَّل لِلونٍ تشمئِزُّ منه نواظِرنا حين نراه،

فكيف من تقفِز لخياله فكرة شُربه وهو مضطرٌّ لفعلِ ذلك؟

البارحة رأيتُ ذلك حقيقة على ذات الشاشةِ اللعينة التي لا تنفَكُّ تعرِضُ مآسي هؤلاء دونما رحمة!

مسكينةٌ تلك الشاشةُ في الواقع، هي تظنُّ بأنَّ أحداً سيشعُر بالغضبِ ويحاول جاهداً تقديم مايستطيع لمحو تلك الصُّورة عن الوجود.

ومسكينةٌ أنا حين حوَّلتُها نصّاً من كلِمات، أظنُّ أيضاً بأنَّ أحداً سيمنعُ تلك القذارةُ عن أفواه العِطاش.

ومسكينٌ ذاكَ الذي يقرأ وليس باستِطاعتِه شيءٌ سوى قول:

"لا حولَ ولا قوة إلا بالله" بكثيرٍ من القهرِ والدموع.

ومسكينٌ هذا العالم الذي يمشي بأقدامهِ في الظُّلماتِ إلى الهاوية!

من هنا ومن غرفتي الصَّغيرة

أقِرُّ بأن العطش سفَّاحٌ ماكِرٌ يُجبِر العِطاش بتهديدٍ مُعلَن إما ذاك الماء المقزّز وإما موتٌ مُبرِح!

وما على أولئك المساكين سِوى التَّمسُّك بأذيال هذه الحياة التَّعيسةِ بانكِسارٍ وهوان.

غيمةٌ مُضادةٍ لِلحروب

تطرُقُ رأسي الأفكار باستمرار:

كيف يُفكِّرُ أولئكَ الذين يمتهِنون الحروب ويجعلونَها شُغلهم الشَّاغِلَ؟

يُشعِلونها في كلِّ مكانٍ تنطفئُ فيه، ويخلُقونها في مكانٍ لم يسمع عنها قط!

ينشُرون رُعباً ودِماءً وقهراً وفقداً وموتاً

ولا يسألُ أحدٌ نفسهُ ذاكَ السؤال الذي من الضَّروريِّ أن يُسأل:

"لماذا؟"

ربما كان باستطاعتهم إيجاد جوابٍ يُقنِعُ أنفسهم المُتعطِّشةِ للدمارِ من خلال فلسَفَتِهم الإجرامِيَّةِ

ولكن نحن من يستطيعُ إقناعَنا؟

نحنُ التائهون والضائعون بين دبَّاباتِهم ورصاصاتِهم وقراراتِهم الدمويَّة

ونحنُ المنفِيُّون من أوطانِنا من أجلِ رغباتِهم

والميِّتون حياةً وأحلاماً وآمالاً.

الميِّتون حقيقةً والباقونَ على قيدِ الحروب وآثارِها.

هل من غيمةٍ تُمطِرُنا بقطراتٍ مُضادَّةٍ لِلحروب؟

كم نحنُ بِحاجةٍ إليها فجميعُنا مُدمَّرَة قلوبُنا

وكم نحنُ بِحاجةٍ إليكَ يا الله!

لا تَدَعينا لِلنسيان

أثناء ممارستي طقوسَ استيقاظي بارتِشافِ قهوتي بِهدوء، بدأتُ أسمعُ أصواتاً غريبة، أو هكذا خُيِّلَ لي!

فزِعتُ في البداية لأنَّه ما مِن أحدٍ في الغرفةِ سِواي، ولكنَّ شيئاً ما في قلبي أرشَدني لتمييز تلك الأصوات ومعرِفةِ ماهيَّتِها.

أغمضتُ عينيَّ وبدأتُ برحلةِ الإنصاتِ مُمتطِيةً خيالي، فتهادى إلى أُذُني في بادئ الأمر صُراخٌ لِطفل وبكاءٌ مرير!

رقَّ قلبي ودمَعَت عيناي.

لَمحتُ وجهَ الطفل الباكي، كان نحيلاً جداً تكاد عِظامهُ تبرُزُ من فتحاتِ ملابِسهِ الممزَّقة

وكانَ يحمِلُ على ظهرِه أكواماً من القهرِ وفي صدرِه مدينةٌ من دمار!

حاولتُ الاقترابَ منهُ علَّني أمدُّه بعضاً من العطفِ والمواساة، ورغيفاً من الخبز!

نظرَ إليَّ بعينَين مُحتَقِنتَين من اللوم والعِتاب، وحرَّك شفتَيه المُتشقِّقَتَينِ من الجفافِ هامِساً:

"أرجوكِ لا تدَعينا لِلنسيان!"

حاولتُ قولَ شيءٍ ولكن انبِثاقَ كلِّ تلكَ الوجوهِ البائسةِ في وجهي أفزعَني حدَّ نِسياني لِلكلمات

حاصرَتني تلك الوجوه، عاتبَتني ومزَّقت قلبي النَّازفِ ألماً من ملامِحهم الفاقِدةِ للحياة،

ونطَقت جميعُها بصوتٍ واحِدٍ يشوبُه الانكِسار:

"لا تَدَعينا لِلنسيان!"

وبلمحِ البصر شقوا أجسادهم المُتلاصِقةِ ببعضِها وأفسحوا لي عن طريقٍ طويل مَشيتُ فيه بِخطاً متوتِّرةٍ بطيئةٍ أكادُ أجرُّ قدميَّ جرّاً لِأسير

وهم على جانِبَيِّ الطريق وكأنهم أشجارٌ هرِمة مُتآكِلة مُحدِّقين بِذاتِ النظرات!

قلبي كان يرتجِف ذُعراً ولا أعلم بعد كيف لم يتوقَّف حينها، وكأنَّ الموت كان يرفُضُ زيارتي ويرفُض وجودي

شعرتُ بأني أمشي على طريقِه ليس إلا!

نظرتُ أمامي فتراءَت لي مئذَنةٌ حطَّمتها براميلُ الموت

عاتَبتني هي الأخرى وقالت:

"لا تترُكي مئذنةً حُرمت من نشرِ نِداءِ الله في الأرجاء لِلنسيان"

ومدرَسَة فارِغةٌ من كلِّ شيءٍ سِوى أكوامِ الأحجارِ وبقايا أرواحٍ دُفِنت تحت الأنقاض، توسَّلَت هي الأخرى:

"لا تتركيني لِلنسيان"

مُصحفٌ مُلقى هُناك فوقَ بابٍ مكسورٌ ممدودٌ بعضُه على الأرض

أخبرني بأنَّ شيخاً عجوزاً لم يكُن يَترُكه من بينِ يديه، حالَت بينهما رصاصةٌ غادِرةٌ وقذيفةٌ

جعلت من الشيخِ دفينا تحتَ الباب وأنا فوقَه، لن تجِدي جُثَّته رُبَّما تعفَّنت!

لكنَّ روحَه تنظُر إليَّ بغضبِ كيف لم ينتشِلني أحدٌ حتى الآن!

انتشِليني لِترقُد روحهُ الطَّاهِرة بسلام ولا تتركِينا لِلنسيان.

احتَضَنتُه بقُوةٍ لا أعلم ما الذي أستطيعُ فعله كي أُرضيهِم وبدأتُ أبكي بنشيجٍ وأشهقُ وأصرخ:

ماذا تُراني فاعِلة؟

وقف الوطنُ أمامي قويّاً شامِخاً رُغمَ جِراحِه وصرخاتِ نزيفه الدامي

أخبرني عن مئذنةٍ فقدت صوتها لِلأذان، وعن كنيسَةٍ تبعثرَت أجراسُها تحت المباني المدمَّرة

أشار إلى صدرِه كاشِفاً عن صرخاتِ أمهاتٍ فقدنَ أبناءهُن

وأطفالٍ ماعاد بالعالمِ شيءٌ يثيرُ رغبتهُم الطفوليَّة لِلعب

أخبرني أنهم كبِروا بلمحِ بصر، بِضعُ رصاصاتٍ قرّرت يُتمَهم وتشرُّدَهم

فكبِروا بجِراحِهم وبأزهارِ ياسمين ذابِلة مُمزَّقة

لوَّحوا لي وحركوا شفاهَهم الجائعة:

"لا تترُكينا لِلنسيان"

قبلَ أن أعودَ لِنحيبي وبكائي، أفصَح لي الوطنُ عن أمانةٍ تركتُها قبل منفاي:

روحُكِ مازالَت تسرَحُ داخِلي وتعيش، إنها بأمان

لا تقلَقي!

لَمعَت بِعينيَّ نظرَةُ شكر واطمئنان، وما أن لمحتُ تلك الوجوه حتى عُدتُ للبكاء!

كانت الصَّدمةَ التي أفقدَتني صوابي هي أنَّ كلَّ تلكَ الوجوه فقدَت الحياةَ ذاتَ حربٍ مُستمِرَّة حتى الآن

وأنَّ ذاكَ الطفل الذي مدَدتهُ بِرغيفِ خبزٍ لم يعُد يفيدُه الخبز شيئاً!

لوَّحَ لي بِرغيفِه وقال:

"ماذا يفيدُ رغيفُكِ روحاً زُهِقَت ظُلماً وطارت إلى الجِنانِ تشكي لِخالِقها عمَّا فعله بها الأرذال؟

رغيفُكِ هذا دعيهِ قلماً واكتبينا شِعراً أو قصيدةً ترتجِف بها القلوب فتهِبُّ لِنصرَةِ ذوينا الواقِفين على حِيازِ الموت هُناك في الوطنِ جميعُهم يئِنُّون ويصرخون.

اجعلي رغيفَكِ قلماً واكتبيهِم روايةً تتقطَّعُ بها قلوبُ المُتخاذِلين

اكتبيهِم قصاصاتِ جُملٍ تنهرُ قلوبَ القاتِلين وتهُزَّ أورِدتهم بِعاصِفةٍ من ذعرٍ تُذكِّرهم بأنَّ الله يمُدُّ لِلظالمين

اكتبيهِم كيفما شئتِ ولا تنسِنا كما نسِيَهُم النَّاسين

اذكُري أرواحاً باتَت أجسادُها تنزِفُ دماً طاهِرا تواسي به الوطنَ وتُطهِّرُ آثارَ أقدام القتَلَةِ والفاسِدين

لا تنسِنا، أذكرينا فجميعُنا يحتاج من يتذكَّره"

استيقظتُ من رِحلتي القاسِية وتذكَّرتُ أنَّ أحدهُم أخبرني بأنَّ نصوصي التي أكتبها مُتشابِهةً في الشوقِ والحنين والأسى

وأنَّ الوطنُ في كلِّ قصيدةٍ أو نثرٍ أو خاطِرةٍ يحتلُّ مكانهُ في الصَّدارة.

فكَّرتُ ملِيّاً بكلِماته وقرَّرتُ بأن أكتُبَ شيئاً جديداً علَّني أنجحُ بأن أكونَ كاتِبةً تحتضِنُ جميع أشكالِ المعاني

نسَجتُ قِصَّة حبٍّ جميل وأخرى انتهَت بِفراقٍ أليم

أعجبَت القُرَّاء وصفَّق لي الجميع!

ولكنَّ الوطن بِداخلي يئنُّ وأصواتُ البائسين تعلو وتعلو كلَّما أعرضتُ عنهُم كلماتي:

"لا تنسِنا، اذكُرينا"

كبُر الصراعُ داخلي وهتفتُ بصوتٍ محموم:

ألا يكفي بأني مِلتُ عنهم بالرحيل، وعن الوطن بالمنفى؟

لِذا سأستمِعُ لهم فقط، خيالاتُ أمواتِ وطني الرَّاحِلون والباقون

سأُلبي نِداء الوطنِ الذي رُغمَ ابتِعادي عنه ظلَّ مُحتفظاً بروحي التي أبت أن تُغادِره

سألبي نِداء ذاكَ المُصحف المتروك على حافة الخراب

سأذكُركُم فأنتم أَولى بِذِكري من قِصَّةِ حبٍّ من خيالي تلعَبُ وتمرَحُ على حافَّة الألم.

لو أنـها تُمطِرُ شوكولا!

لو أنَّ غيوم السماء تُمطِر شوكولا!

رُبما اكتست الأرض بِحلَّةٍ بُنّيةِ اللون حلوةً ورقيقة

ليسَت كالرداء الأسود الذي يكسوها بألوانه الدمويَّة

ليسَت كذاك الثوبِ المُطرَّز بالخيبات والكذب والمشاهِد المُزرية!

تلك الأرضُ التي لا نرى فيها سوى فقرٍ وجوع ويُتمٍ وموت أطفالٍ ما زالت بعمر البراعم الزهرية

كيف لها أن يكون فيها من يحمل بقلبه الإنسانية؟

تلك الأرض التي ما عادَت تتَّسِع لِقبورٍ جديدة

فالوافِدون كُثُر وقد تعدَّوا الأرقام القِياسيَّة!

تلك الأرض التي ما عاد فيها الأمان يعني شيئاً

والتي اختلَطَت فيه مفاهيم السلام السماوية بِأسلحةٍ وذبحٍ وقتلٍ من قِبَلِ أولئك الذين يدَّعون

أنهم يُدافِعون عن الإسلام بِأفكارهم الإجراميَّة!

على شاشةِ التِّلفاز قالت مُذيعةٌ خبرًا يتفَوَّهُ فيه صاحبُه بكلماتٍ استفزازية:

((أن ممنوع أن يطأ أرضنا كلُّ من يحمِل هوية إسلامية))

ما هذا الهُراء؟

أنَسيتَ أنَّ السَّلام منشؤه الإسلام؟

ولكنَّ العربَ لم يُظهِروا لكم جميع مبادئه الأخلاقيَّة

عُذراً، فجميعهم مشغولون بِأمورهم ومصالحهم الخصوصيَّة!

وأولئك المُحتمون في الخِيام تحت السماء بِليالٍ شتويَّة

لهم الله!

ومن البشر بعضُ أدعِيةٍ ومشاعر وهميَّة!

وأولئك المُغتربين الهاربين من موتٍ وبراميل تفجيريَّة،

عُذراً..

ليس لِأحلامِكم مكانٌ على أراضينا العربيَّة!

وليس لِآمالِكم وأمانيكم أملٌ بأن تتحقق على أرضِنا العربيَّة!

وإن حدَث وأصابكُم مكروه

اختبِئوا في بيوتكم بين الجدران الضيقة، فليس لكم سوى أن تصبِروا.

ألم تعلموا بأنَّ الصبر من العِبادات السماويَّة؟

وذاك الوطن المُدمَّر النازِف هناك بكافة الأشكال الوحشيَّة،

أما آنَ لاجتماعاتكم الكثيرة والمُتتالية أن تلِد حلاً يُوقِف البليَّة؟

أم أنَّ لِلحديثِ بقيَّة؟

وأشرُد عن كلِّ هذا وأنطِق:

لو أنَّ غيوم السماء تُمطِر فوق الأرضِ شوكولا!

ربَّما كانَت سوداء ولكن بِطعمٍ وحياةٍ أحلى!

فضول مجانين

يتبادَرُ لِذهني أحيانا فكرةٌ عجيبة:

ماذا لو كانت الحربُ شخصاً نراهُ بِجسدٍ وملامِح مثلنا؟

ربما تجرَّأتُ بفضولِ المجانينِ وغبطتِهم لأسألها على الرغم من علمي المُسبق بالإجابة

"هل لكِ قلب؟"

أرِني إياهُ حتى أصدِّقكِ إن قلتِ نعم!

أرِني إياه حتى أحاوِل تبرير أفعالكَ الشنيعة بِنا!

أرِني إياه حتى يصمتَ جنوني ويهدأ هذياني!

كل ليلة تُهاجمُني صورُ أطفالٍ مغطّاةٍ حتى أخمصِها بالدماء

بعضهم ملفوفين بالأبيض شاحبي الوجوهِ والملامح

بعضهم تتراكم أجسادهم الجامدة الزرقاء فوق بعضها البعض

علِمتُ بأنهم تنفسوا الموت بإفراطٍ مَغصوبين ومُجبَرين إذ لا مفرَّ من ذلك!

بعضهم كانوا بقايا أجسادٍ دُفِنَت بعد موتِها تحت بيوتٍ مُهدَّمة فوق رؤوسِهم

قيل لي بأنَّ فجائع انبَثقَت بعد ذلك لِتنخُر أرواح ذويهم الباقين على قيد الحياة التي تشبه كلَّ شيءٍ إلاَّ ذاتها!

والبعض ماقبل الأخير كانوا أجساداً تطفو في مياه المحيط بلا أرواح، ولا حقوق

بلا أدنى شعورٍ بالغضب لِأجلهم!

أما البعض الأخير فهم الأقسى وضعاً من كلِّ أولئك

أجسادٌ يتيمة تملِكُ أرواحاً مُمزقةً، بالية، تكادُ تعجزُ عن التخمينِ إن كانوا حقاً أحياء أم أنهم أمواتٌ

خرجوا من قبورهم لِلتو!

لا أم، لا أب، لا أمان، لا دفء، لا شيء سوى أجسادٌ خاوية تتهاوى بين الحياة والموت!

هناك في اللاَّمكان حيثُ يُجبرون على التَّأقلم مع شبحِ الموت ومُصادقتِه!

هناك يلفِظون أنفاسهم المرهقة ويبعثون لي مع نسمات الصباحِ والمساء تأوُّهاتهم وبكاءهم

صِرتُ أهذي بهم

طيوفهم تطوّق عزلتي وتبكي في وحدتي وبعد إتمام طقوسِها المأساويَّة في مخيّلتي

تُقهقِهُ ساخِرة:

ويحكِ أتظنّين بأنكِ على قيد الحياة أيضاً؟

ماذا لو أنَّ هذي البلاد التي تقبعين بها أرادت لفظكِ منها؟

تماسكي جيدا ولا تجعلي الضعف ينخُرُ قِواكِ فتستسلمين لإرادتِها

فكلما سلبَت منكِ حلُماً فاجئيها بآخر وامضِ به،

وإن لم يبقَ لكِ سِوى الكتابة، أرهقي الغربة بها ولا تسمحي لنفسك أن تسقط في الهوان!

أتعِبيها كما أتعبَتكِ، واجعلي القلمَ سيفاً صارخاً في وجهِها ولا تنسِنا.

لطالما كانت الطفولة نقطةَ ضعفي وجرحاً ينزِفُ بي كلما وجدتُ طفلاً يبكي ولو بدونِ سبب

قد تكون الحساسيَّة المُفرِطة التي أعانيها هي السبب

أو حنان الأمومة وعطفها التي خصَّ بها الله جميع الإناث على وجه الأرض!

ربما كنتُ مريضةً بالإنسانية التي باتت وباءً نادرَ الوجود في عالمنا!

رمَقني جسدُ الحربِ الذي اختلقتُه من تلقاء مخيّلتي بنظرةٍ ساخِرةٍ حاقِدة جعلتني أنسى ما كنتُ أفكر به قبل لحظات ونطق:

"بالمُناسبة، لا أحد سيسمعُ نداءكم واستغاثاتكم ولن يروا نكباتِكم وفجائعكم لا عربٌ ولا غربٌ"

ومضى الخيال يتلاشى في اللاَّشيء وصوتُ الضحكة الساخرة والهازئةِ مازال يصدحُ في أرجاءِ الغرفة.

صرختُ بصوتٍ غاضِب وحاقد وواثق على ذاكَ الخيال قبل اختفاء الصوت الأخير معه نهائيا:

"لكنَّ الله معنا!"

ونحن الماضون بِلا وِجهَةٍ أو هدف!

ونحن الماضون بلا وِجهةٍ أو هدف

نمضي رغم التعثر والتعب، رغم الألم، رغم القهر

ورغم انغِماسِ جراحنا بِمرّ الواقع ومُلوحة الحياة،

رغم الصراخ المكتوم والدموع المُنسابة التي عانت حتى تُخفي أيَّ أثرٍ لها

نرتدي في كلِّ صبحٍ جديدٍ وجوهًا ليسَت لنا

ونعتلي ابتِساماتٍ بشِفاهٍ لا تُشبه شفاهنا المُتشققة، الباردة، والمتعبة!

ونمضي بدون أن نفكِر بما تركناه ينتظرُنا لِليلة أخرى تُضافُ لِلياليا الماضية الكئيبة!

في الطريق ثمة من يُلقي قشور ذكرياتٍ كانت ذات ماضٍ بعيد من ذهب بعد أن صارت بلا قيمةٍ

داخل كومةٍ من الركامِ المادي والمعنوي الذي نعيشه الآن

الفوضى تلف كل شيء!

الخرابُ يبتلع حتى بهجتنا لأبسط الأشياء!

الطمع يُتلِف حتى القلوب ويزُجُّ نفسه بين المشاعر حتى يعدِمها ويَئِدها فور إحيائها!

ثمة من يرقص على أجسادٍ تلطخت بدماء البراءة من كلِّ إثمٍ سوى أن أصحابها أرادوا يومًا الحياة

فأُغرِقوا في منافيهم بلا أرواح!

أجسادٌ مثيرة للشفقة حتى تكون عِبرةً لمن تُسوّلُ نفسه يوماً بأن يفكِّر بالحياة

وها نحنُ ذا فاعتبِروا!

ثمة من يُسكِتُ عصفورًا مُغرِّدًا لِنسمع نشازه المنتشر في الأرجاء ضجيجًا مُزعجًا ومُرهِقًا

ويطلبُ مِنا أن نصفق له

لأنه لم يفعل شيئًا سوى أنه تسبب بالعطب في آذانِنا وربما وصل ذلك العطبُ حدَّ الصمم!

في عالمنا الذي نعيش لا مكان لرأينا في اهتمام أحد

ولا مجال لرغباتنا الكثيرة بأن تجد لها طريقًا ممهدًا سوِيًا لتتحقق!

لا مجال لأنوفِنا البائسة أن تتنفس ما شاءت من الهواء النقي.

ولا مجال لقلوبنا العاشقة للحياة بالنبض حبًّا كما شاءت

ولا لِعقولِنا الحالِمة بالإبحار كما اشتهت في بحار خيالها

قيود في كل مكان!

ونحنُ الماضون بلا وِجهةٍ أو هدف

ألا نستحقُّ أن نعيش؟

سأرقص على قيد الحرية

منذُ أن وطِئَت قدماي أرض المنفى وأنا أعاني تشتُّتاً في كل شيء

أراني دوماً غارِقةً بِالفراغِ أُحدّقُ في اللاَّشيء

وكأنَّ اللاَّشيء هذا سيُخرِجني من بحرِ غربةٍ مُتلاطِمة الأمواج

تَقذِفُ بي يُمنةً ويُسرةً راميةً بِجميعِ أحلامي عرض البحر، خسِرتُها جميعاً دُفعةً واحِدة!

ومعها خسِرتُ أن يكون لي وجوداً حقيقيَّاً بين أشخاصٍ حولي دون أن يكون فِكري في مكانٍ ما

وفقدتُ قوَّتي التي كانت بالأمس قد ملأَت روحي أملاً وثقةً والآن باتت خاويةً تتقاذفُها مخاوِفي

واستسلاماتي الدائمة.

منذُ أن وطِئت قدماي أرض المنفى نسيتُ نفسي ولم أنسَ كلماتي، لم أنسَ هِبةً منحني إياها خالِقي!

ربما الآن وجدتُ ضالَّتي، أو ما سيُعينني داخلَ تلك الأمواج كي لا أستسلِم يوماً.

ذاتَ يومٍ باتَ بعيداً أمسكَت يدايَ حلُماً كنتُ أعتبرهُ مستحيلاً، حتى أني بدأتُ أعيشُه بكلِّ تفاصيلِه

وبتُّ متأكدةٌ تماماً بأنه تحقَّق

أو هكذا خُيِّلَ لي!

فجأةً وأنا أعيشُ شغف الانتظار فإذا بموجة مجهولة قذفَت به بعيداً

بعيداً جداً دون أي سابق إنذار، ودون أيِّ سببٍ يُذكَر، يئست وقتها لا أنكِرُ ذلك أبداً!

وعُدتُ لِلغرقِ في اللاشيء.

كتبتُ كثيراً حتى أنسى ماحصل، وأخبرتُ ورقتي بأنِّي لستُ في بلدي حتى أتمنى ما يحلو لي،

وبأن وطناً يُضيقُ خِناقهُ عليَّ لِدرجة أن يحرِمني من التحرُّرِ من آلامي الطويلة ليس وطني، ولن يكون!

إنَّ وطناً يقتُل آمالَ قاطِنيهِ ليس وطناً لهم!

أخبرتُ ورقتي بأني لن أنتظِر الخلاص سوى من الله

وبأني سأتَّخِذُ الكتابةَ سِلاحاً أُقاوِم به تلك الأمواج وذاكَ الوطن،

وبأني سأعودُ يوماً إلى دمشقَ أرقُصُ فرحاً وأنا على قيد الحريةِ من سجني الطويل.

عالمٍ خاصٍّ بي

أينما بحثتُم عنِّي

ستجِدونني بين أوراقي وقصاصاتِ خواطري

غارِقةً بين كلِماتي وحروفي

أينما بحثتُم عني

ستجِدونني هناك في عالمٍ خاصٍّ بي

بعيداً عن عالمٍ مُبهمٍ غريبٍ نعيشه جميعًا!

عالمي، حيثُ أبحثُ فيه عن شتاءٍ دافئٍ بعيداً عن التعقيدات والأفكار المُستهلَكة التي لا تفيدُ مجتمعاتنا

بشيءٍ حقيقي ذا قيمةٍ عميقة

بعيدًا عن نظراتِ البعض لي أنا المُهمَّشة من الوجود

بسبب هيئةٍ لم تزُق لعيونهم وفكرةٍ تم اعتناقها لأنَّ الظاهر غريب!

الأزرق لون الحب!

في الحلم رأيتني أمسك زهرة زرقاء

حدثتُ نفسي وأنا أتأملها لو أن الناس جميعا تملك قلوبا بلون تلك الزهرة!

جميعهم يملكون قلوبا حمراء

ولكن قلوبهم لا يملؤها سوى الكره والغيرة!

والبعض منهم تعج قلوبهم غيظا وحقدا

من قال بأن الأحمر لون الحب؟

أنا شخصيا لم أعد أؤمن بهذه الفلسفة أبدا!

فما رأيته من أصحاب القلوب الحمراء كان مؤكِّدا على عدم إيماني بها

لا أعرف صراحة مَن ذاك الشخص الذي قرر بأن يكون الأحمر للحب ربما كان صادقا ومحقا حينها،

ولكن من يملكونها أثبتوا العكس تماما بخذلانهم وكمية الخيبات التي يهدونها لمن "يحبون"

وبالخداع والكذب الذي يمارسونه معهم!

ماذا لو كان للحب لون آخر غير الأحمركالأزرق مثلا؟

لم أقترح هذا اللون لأني أحبه فحسب، ولكن أليست السماء زرقاء وهي صافية نقية؟

وأعلم أن أغلبنا يحلم بالوصول إليها ويشعر بالسلام النفسي كلما تأملها.

أليس البحر أزرقا وهو دافئ واسع يسع الكثير في جوفه؟

وأنا، قلبي أزرق!

ردَّدتُ هذه الكلمة كثيرًا وأنا أتأمل زهرتي الزرقاء بكثير من الحب والأمل والتفاؤل

حتى استيقظت من حلمي على صوت أمي:

- ستفوتك الصلاة يا حبيبتي، استيقظي!

الأحلام حكاية أخرى

غارقون في أحزاننا وخيباتنا حتى أخمصنا

والأحلام!

تلك حكاية أخرى!

كلما فتحنا دولابا من دواليب قوقعتنا المنغلقين داخلها في وحدتنا المظلمة

وجدنا الكثير من الأحلام التي تنتظر الوقت المناسب لتتحقق

نتفحصها ونتأملها، نحتضنها ونقبلها

ثم نتمنى لها أن يأتي يومها الورديَّ قريبًا لتتحقق بسلامٍ

وبعدها نغلق عليها الدواليب.

وبكثير من الأمل نبتسم بامتنان لأن لنا خالقا يسمع همسنا ويعلم أساريرنا

وبيقين أكيد نثق بأنه ذات يومٍ سيحقق لنا أحلامنا جميعا!

لِلصَّباحِ أحكي!

لِلصَّباحِ مرَّةً قصَصتُ حكايتي وأخبرتُه عن أملٍ مازلتُ متعلِّقةً به رغم الرِّياح القوية التي تضرِبُ حياتي، أخبرتُه عن ملاكٍ زارني في الحلمِ وأخبَرني بأنّي يوماً سأكون قمراً في ليلةٍ شتويَّةٍ كثيرةِ الغيوم.

قصَصتُ لهُ كيف مشَيتُ درباً خاطئاً بِخُطاً مُتثاقِلةٍ بطيئة، وفي النهاية وقعتُ بحفرةِ الخيبة المُظلِمة.

لِلصَّباح مرَّةً قصصتُ حكايتي مع قمرٍ انتظرتهُ طويلاً، ولم يُزين سمائي.

لأنه وبِبساطةٍ، لم يكُن لي!

يا لَ سذاجتي وحماقتي حينَ أنتظر!

فلا أعلمُ لِمَ أنتظر

وما الذي يجعلني أنتَظِرسِوى نبضاتِ قلبٍ خجولةٍ تُمسِكُ يدي وتسحَبُني لِأسير خلفها

دربَ الانتِظار!

أمن الممكن أن يكون انتظاري صائباً؟

لوَّحَت ليَ الشَّمس بِيدِها مع ابتسامةٍ ساحرةٍ فاتنة

وأخبرَتني أن أُكمِل فِنجان قهوتي الصَّباحيّ

وأَصنَعَ ابتِسامةً لي

وأتحلَّى بِصبرٍ وتفاؤل عَلَّ نهاية يومي وانتظاري يكون قمرًا ساحِرًا يُخبِرني:

"أنا لكِ!"

مازِلتُ صغيرَةً لم أكبُر!

كبُرتُ عاماً!

وكأنَّ أعوامي السَّابِقةَ ركَضَت سريعاً، وكأنّي لم أشبَع مِن طُفولتي.

سريعاً مضَت أربعٌ وعِشرونَ عاماً!

وها أنا أدخُلُ عاماً جديداً وفي أعماقي ما زِلتُ طِفلة،

ما زِلتُ صغيرةً لم أَكبُر!

ما زِلتُ بعيدَةً عن وطنيَ الذي تركتُ فيه روحي

مازِلتُ بعيدةً عن مدينَةٍ تركتُ ذَكرياتي مَحفورَةً على حِجارَةِ شَوارِعِها

ما زِلتُ بعيدةً عن أصدِقاءَ ترَكتُ ابتِساماتي و ضحِكاتي معهم

وما زالَت خيبةٌ داخِلي تُمَزّقُ قلبيَ الصَّغير الذي أَحَبَّ أن يعيشَ السَّعادةَ

في غُربَتِهِ ذات حماقة!

ذِكرَياتٌ كثيرَةٌ عِشتُها في عاميَ الماضي عَلَّمَتني أنَّ الحَزنَ لا يليقُ بقلبي المليء بالإيمان،

أَن أَتَعَلَّقَ بِبَصيصِ أملٍ يبرُقُ أمامي

وأن أتمَسَّكَ بِأشخاصٍ رُغمَ بُعدِهِم عني

زرَعُوا أمَلاً وابتِسامةً وفرحَةً في حياتي.

أن أترُكَ جميعَ أوهامي وَ مَخاوِفي وأتَعَلَّقَ بِمَن وَثِقَ بِأنَّ شِتاءً دافِئاً سيَغدوحقيقةً ذات يوم.

وأنَّ اسمي سَيَكونُ لامِعاً ذاتَ يوم!

حديثٌ معَ الذَّات

سَألتُ ذاتي:

أين أنا؟

ردَّت:

أنتِ حيثُ لم تشائي أن تكوني، حيثُ الضَّياعِ الذي تخافينَ حُدوثَهُ، ظلامٌ دامِسُ المعالِمِ يُحيطُ بكِ، يُقَيِّدُكِ، يُبَعثِرُكِ و يَشُلُّ حرَكَةَ اندِفاعِكِ لِلحياة.

تخافينَ من كلِّ شيء، ومِن أيَّ شيء!

تخافينَ الابتِعادَ فتَخسَرين، وتخافين الاقتِرابَ فتخسَرينَ أيضاً!

بِكِلا الحالَتَينِ أنتِ الخاسِرة.

- ما العمل؟
- لا شيء!

ارتَدِي ثوبَ اللاَّمُبالاة، وضَعِي قِناعَ السَّعادةِ المُصطَنَعة، عيشي ضياعَكِ لِوحدِكِ، واجعَلِي طُقوساً خاصَّةً بكِ، ابتَسِمي، اضحَكي، ارقُصي، غنِّي وعيشي الجنونَ على طريقَتِكِ وكيفَما شئتِ، لا تهتمّي لِأحدٍ أو لِشيء

كوني كما تَشائينَ أن تكوني وانثُري عبَقَ ياسَمينٍ دِمَشقِيٍّ حَيثُما حَلَلتِ وَوَطَأَت أقدامُكِ.

اعتِذار

لَعَلِّي تأخَّرتُ بِغِيابي، ولعلَّ شمسي أطالَت غُروبَها

لكِنَّ الأملَ ما زالَ يَغمُرُني بِأنِّي يوماً ما

سأكونُ ما أُريد

وسأَعودُ لِوَطَنِ الياسَمين

و سَأُغَنِّي معَكُم أُغنِيَةَ الأحلامِ المَنشود وعلى أنغامِ حُروفِيَ المكتوبةِ

بِيَدِ شِتاءٍ دافئ تبحَثُ عن الدِّفءِ وسطَ صقيعِ الواقِعِ البارِد.

كلِمةٌ واحِدة

كلِمة واحِدة فقط فقد تستطيعُ انتِشالَنا من مُستَنقَعاتٍ مُخيفَةٍ مُظلِمةٍ وملِيئَةٍ بالأحزانِ والأسرار،

كلِمة واحِدة فقط بإمكانِها فِعل الكثير!

كأن تَجعَلَ قلباً مُثقَلاً بِالهموم والأوهام يرقُص

كأن تجعلَ خريفاً كئيباً بأوراقِهِ الصَّفراءِ يُثلِج!

كثيراً ما تَعَلَّقَت الكلِماتُ مع الحنينِ والشَّوقِ بالشِّتاء،

وبالشِّتاءِ وحدَهُ يحدُثُ أن تُثلِجَ قلوبٌ أحرَقَتها اللَّوعةُ والألمُ والوِحدة

بأملِ لِقاءٍ قريبٍ ذاتَ مُصادَفَةٍ أو بقاءٍ لِلأبَد على قيدِ السعادَةِ.

بِفِعلِ كلِماتٍ ليسَ إلاَّ!

ذاتَ غُربة

لَيتَ كلَّ الليالي الكئيبَة تتحوَّلُ لِلسَّراب،

ليتَ اللَّيلَةَ يهطُلُ مطرٌ يَغسِلُ القلوبَ المُعَلَّقَةَ بالأحلام.

كثيراً ما راوَدَتني فِكرةُ الرَّقصِ تحتَ المطروأنا التي لم تُفَكِّر بِالرَّقصِ يوماً!

أشتاقُ لِلمطَر، أفتَقِدُهُ حقًّا

رؤيَةُ قَطَراتِهِ وسَماعُ صوتِ هُطُولِه يُشعِرانني بِأني على قيدِ الفرَح

على قيدِ السَّعادة والأمل.

لا أَحِنُّ لِأحدٍ حينَها سِوى لِذاتي!

لِذاتي التي تحَوَّلَت لِلاشيء بعدَ أن ابتَلَعَتني الغُربة لِمكانٍ جافٍّ فقيرٍ من لَذَّةِ السَّعادَةِ بِصوتِ المطر والقطراتِ التي تَتَساقَطُ على يَدَيَّ وتُلامِسُ خدّي لِتَعبُرَ أعماقَ روحي فتَغسِلَ كلَّ لمحَةِ تَعَبٍ أو حتَّى أَلَم.

حقّاً، أشتاقُ لِذاتي التي كانَت تَتَحوَّلُ لِطِفلَةٍ صغيرَةٍ ما إن تشعُر بأنَّ مطراً على وشَكِ الهُطول.

خربشات

شعوري بِالرَّغبَةِ في الهُروبِ من شِجاراتٍ تَدوي داخِلَ رأسي.

أستَلِذُّ بِرسمِ أغصانِها المُتشابِكةِ غريبةِ المعالِم فاقِدَةِ الجمال، وألحظُ أنَّ هُناكَ شَبَهٌ واضِحٌ لِتِلكَ الأغصان بِأفكاري،

تِلكَ الخُطوط المُلتَوِيَةِ تُشبِهُني كثيرًا كَونَها واقِفَةً هُناكَ وحيدَة، غريبة، لافِتَةٌ لِلأنظارِ تماماً كَأنا!

أحياناً يُخَيَّلُ إلَيَّ أنَّها قَدَري، وخطَّ سَيري نحوَ شِتائيَ الدافئ، رُغمَ أنَّ دِفءَ الحياةِ باتَ شِبهَ مُستَحيلٍ في واقِعِنا الحالي الذي يَسودُهُ صَقيعُ البُرودِ في المشاعِر، الضمير، والإنسانِيَّة.

صَقيعُ اللاَّمُبالاةِ المُتَعَمَّدة!

رُغمَ كَثرَةِ التَّعَرُّجاتِ والتَّشابُكِ لن أَسمَحَ لِنفسي بالضَّياعِ بينَها وفيها أكثر.

كُلَّما أردتُ الهُروبَ من كلِّ شيءٍ ومن نفسي أيضًا، أمسَكتُ قَلَماً ورَسَمتُ شَجرَةً مُتشابِكة،

وبعدَها فَسَّرتُ سبَبَ كَونِها موجودةً ومرسومَةً على أوراقيَ الخالِيَةَ من كلِّ شيءٍ إلاَّ الكلِمات!

كلَّ حُزنٍ أو ضَياعٍ يبُثُّ إلى روحي تَشَتُّتاً لن يستطيعَ إبعادي عن الكِتابة

فالكِتابَةُ حياةٌ وأنا أعيشُ فيها وأتنَفَّسُ مِنها

وتبقى تِلكَ الأشجار مُجرَّد خربَشاتٍ مُهَمَّشَةٍ فقط.

صُدفة

نَصِلُ أحياناً لِحالةِ الاعتِياد على الألم، ورَفعِ رايَةِ الاستِسلام لهُ، والتَّعايُشِ معهُ وكأَنَّهُ باتَ شيئاً مُهِمّاً في حياتِنا.

نَصِلُ أحياناً لِدرَجَةٍ من اللاَّمُبالاة تُسَيطِرُ على أحاسيسِنا، وتُحاوِلُ إقناعها بِأنَّ الضَّعف ذلكَ لن يذهب،

وبِأنَّ الألَمَ لن ينتَهي، وبِأنَّ الحياة تستَمِرُّ ولن تنتَظِر.

نبدأُ بعدَها نحنُ بإقناعِ ذاتِنا بِأنَّ علَينا إهمالَ الألمِ وإنكارَ وجودِه، ولِذلك نبدَأُ بِفِعلِ أُمورٍ غريبةٍ عنَّا لِتَناسِيه.

نُصابُ أحياناً بِتصَرُّفاتٍ جُنونِيَّة، نضحَكُ مِن هستيريا الألم، ونقومُ بِفِعلِ أشياءَ لا تُشبِهُنا، نتحاوَرُ معَ ذَواتِنا وكأنَّها المُذنِب الوحيد بِكلِّ ذلك، ونَبتَعِدُ عن من حولِنا ليسَ هُروباً منهم،

ولكن لِإخفاءِ الضَّعفِ عنهم!

كثيراً ما أتقَنتُ إخفاءِ شعورِ الألم، بِالضَّحِك والتَّظاهُرِ بِأنَّ شيئاً لَم يكُن.

كثيراً ما تخَيَّلتُ بِأنِّي لَستُ سِوى فتاةٍ ليسَت أنا بِحَضرَتِهم!

فتاةٌ لا تحمِلُ مَظهراً مُلفِتاً لِلأسئلَة الكثيرةِ في عُقولِهِم

كثيراً ما ابتَلَعتُ غَيظي وألمي من تِلكَ النَّظراتِ السَّاذَجةِ المليئَةِ بالكثيرِ من الشَّفقَةِ

وكثيراً ما ارتَدَيتُ قِناعَ اللاَّمُبالاة لِأيِّ شيءٍ يدورُ حولي سِوى أنَّني أُريدُ أن أعيش!

تَرَفَّعتُ عنِ الظُّهورِ وتَكَوَّرتُ في عالَمي الهادِئِ وحدي معَ أحلامي وكلِماتي وموسيقاي.

أحياناً يخلُقُ القدرُ صُدفةً غريبةً لِتَضرِبَ الهُدوء بِعواصِفَ من جليد، صُدفةٌ تُغَيِّر كلَّ الموازين، وكُلَّ الأفكار

صُدفَةٌ تقتَحِمُ وِحدَتَنا لِتُغيِّرَ شيئاً فيها كالموسيقى، فِنجانُ القهوة، وتِلكَ القصيدة!

تِلكَ القصيدَةُ التي لَطالَما تَهرَّبتُ من كِتابَتِها، أجِدُني اليومَ أكتُبُها وأتوقُ لِأن تنتَهي كما آمُل

أتوقُ لِأن أراها حقيقةً، لا حلُمًا، ولا وهمًا كما يُخبِرُني عقلي!

أن يُقَدِّمَ ليَ القدَرُ صُدفةً يرميها بِيَدِ حياتِيَ الجديدةِ التي آمُلُ عيشَها، هذا ما أتوقُ لَهُ الآن.

عالَمُ اللاَّمُبالاة

يَجتاحُني شُعورٌ غريب، شُعورٌ بِاللاَّمُبالاة، بِعَدمِ الاهتِمامِ لِأيِّ ألم، وبِعدَمِ انتِظارِ أيِّ شيء

لم أعُد أنتَظِرُ أحداً!

حياتي باتَت فراغًا كبيرًا وأنا تائِهةٌ وسَطَهُ، لم أعُد أُبالي بِمن يأتي لِيَقتَحِمَ حياتي

إن كانَ مُحِبّاً أم عدُوّاً..

وبِذاتِ الوقت لم أعُد أُبالي بِمن رَحَلَ ومَن سَيرحَلُ قريباً!

مُفاجآتٌ كثيرةٌ تنتَظِرُني لكِنِّي لا أنتظِرُها ولن أنتَظِرَها ولن آبَهَ بِها

لم يعُد يهُمُّني شيءٌ سِوى أن أعيش!

لا يهُمُّني كيف، لِماذا، ومعَ من؟

لا يهُمُّني أحد!

أغرَقَتني أوهامي بِدوَّاماتٍ كبيرة، سرَقَت أحلامي ومُستَقبَلي وجميعِ ما تمَنَّيت

اقتَحَمَتني كِذباتٌ كسَرَت ظهري، حطَّمَتني، وهزَّت ثِقَتي بِذاتي، فلم أَعُد أثِقُ بنفسي!

لم أعُد أثِقُ بِأحدٍ حتى بِمَن قالَ بأنَّهُ لن يرحلَ يوماً، لن أثِقَ بِكلِماتِه لِأنَّ كلِماته ستتلاشى مع الزَّمن

والحُروف ذاتَ يومٍ ستَتَغَيَّروسَيَحِلُّ الرَّحيل ويَسرِقُ فرحَةً مُؤقَّتة، سيأتي ولن آبَهَ به.

فَليَرحَل من يَوَدُّ ذلِك، وليَكذِب مَن سيَكذِب، وليَخدَع من سَيخدَع، وليَصدُق مَن أراد

لن أهتَم، ولن أنتَظِر، ولن أحزَن

لن أفرَح، ولن أشعُرَ بِشيء فقد دخَلتُ عالَمَ اللاَّمُبالاة وأغلَقتُ أبوابَهُ على روحي.

الكِتابَةُ أنا

لا أعرِفُ ما أوَدُّ كِتابَتَه حقيقةً، عن أيّ شيءٍ أُريدُ أن أتحدَّث، وأيُّ كلِماتٍ سأستَخدِم، وأيُّ حَروفٍ سَأجمَعُها معاً لِأُشَكِّلَ منها نسيجاً مُتَمَيِّزاً من الكلِمات؟

رُبَّما أرغَبُ بِكِتابَةِ قصيدَةٍ عنّي وعَمَّا يَجُولُ في بالي مِن أفكارٍ جُنونِيَّة، ورَغَباتٍ تَفتَقِرُ لِأن تكونَ ثمينَة، رَغَباتٍ بسيطَةٍ أتمنَّاها وَرُغمَ بساطَتِها أحياناً أجِدُها صعبة، وأحيانًا أَجزِمُ أنَّها مُستَحيلة،

فَيَنتابُني الشُّعورُ بِاليأسِ وتَتَمَلَّكُني رغبَةٌ كبيرَةٌ بالابتِعادِ عن كلِّ مَن يُحيطُ بي حَقيقِيّينَ كانوا أم وَهمِيّين، قريبينَ كانوا أم بعيدين، يَعرِفوني كانوا أم يَجهَلوني.

يُسَيطِرُ عَلَيَّ وهمٌ بِأنّي وحيدَةٌ وليسَ لي أحد، وبِأنَّ الجميعَ يرتَدونَ أقنِعَةَ الكذِب والنِّفاق، ولا أعلَمُ مِن أينَ يَأتي ذاكَ الوهم وكيفَ يتَسَلَّلُ إلى أعماقي!

رُبَّما كنتُ أرغَبُ بالخُروجِ من تلكَ الأوهام، أو كنتُ أُريد الهُروبَ من أفكارٍ تُحدِثُ حُروباً كبيرَةً داخِلَ رأسي مؤلِمٌ ذاكَ الألم حتى أنه يُرغِمني على عَيشِ صِراعٍ بيني وبينَ ذاتي.

ذاك الصِّراعُ يجعَلُني أكرَهُ نَفسي، وتفكيري، وحتى أحلامي!

أحلامي التي لم تَتَحقَّق ورُغمَ ذلك مازِلتُ مُتأكِّدةً من أنَّها ستكونُ حقيقةً ذاتَ يومٍ بِإذنِ الله.

كثيراً ما اقتَحَمَتني وَساوِسُ كثيرةٌ ورغَباتٌ مُتَناقِضة، كَأن أتَخلَّى عن الكِتابة!

هذهِ الرَّغبَةُ بِحَدِّ ذاتِها ضَربٌ منَ الجُنون، فكيفَ لي أن أتخلَّى عن الكِتابةِ وهي أنا؟

لا أستطيعُ العَيشَ بِدونِها، وهيَ تشتاقُني وتُناديني كُلَّما ابتَعَدتُ عنها، تَشعُرُ بِاليأسِ بِدوني وأنا أشعُرُ بالوِحدةِ والاكتئابِ بِدونِها

كُلَّما ابتَعَدتُ عنها انتابَني شُعورٌ بِالحُزنِ وتَسَلَّلَت إلى أعماقي رغبَةٌ لِأن أكرَهَ كُلَّ شيءٍ وأعتَنِقَ الصَّمتَ والبُكاءَ خِفيَةً!

لِيَصرُخُ صوتٌ داخِلي:

"حُروفُكِ تشتاقُكِ، عودي لِكلِماتِك

ثَمَّةَ حُلُمٌ يَوَدُّ أن يُولَد

اهتَمّي بهِ ودَعي عنكِ كُلَّ أفكارِكِ السَّوداء"

فجأةً أستَيقِظُ مِن أوهامي، وأخلَعُ عنّي رِداءَ اليأسِ وأُعاوِدُ ارتِداءَ ثَوبِيَ المُعتاد ذي اللَّونِ الأزرَقِ والأحلامِ الوردِيَّةِ ذي الموديلِ الأنيق الذي يُوحي بالتَّفاؤل.

هذه أنا!

فجأةً أغرَقُ بِدوّاماتِ ضياعٍ لا نِهائِية، وإذا ما أمسَكتُ قلمي وبدَأتُ بِترتيبِ حُروفي أخرُجُ مِنها وكأنّي لم أغرَق بِها أساساً.

تجرِبة

كانَت تَجرِبةً صعبةً!

لم تَكُن شيئاً غيرَ الذي أعيشُه أبداً، لكنها كانَت أكثَرَ قسوَةً وتَمَيُّزاً

ثمَّةَ ألمٌ ووجَعٌ وقليلٌ من الوِحدةِ في سجنٍ بِلا قيود، غير أنّي لم أُبارِح مكاني أبداً

ليسَ لِأنّي لا أُريد، ولكن ثَمَّةَ قِفلٌ مُوصَدٌ يَمنَعُني مِن التَّحَرُّك!

أتساءلُ أحياناً:

كيف يستَطيعُ المُطَوَّقونَ البقاءَ وسطَ سِجنِهم المُلَوَّث بِالألمِ والوَجعِ طوالَ عُمرِهم؟

صحيحٌ أنّي اعتَدتُ الألمَ واحتَضَنتُهُ كثيراً ولكِنّي كنتُ أعقِدُ معهُ اتِّفاقاتٍ حتَّى أستَطيعَ نِسيانَهُ لِلحظةٍ واحدةٍ

حتى أتنَفَّسَ قليلاً مِن الحُرّيَّةِ بعيداً عن أسوارِهِ المُؤلِمةِ والمُقلِقة.

لكن كيف لهُم أن يَعقِدوا مِثلَ هذِهِ الاتِّفاقِيَّات؟

كيفَ لهُم أن يتنَفَّسوا شيئاً منَ الحُرّيَّةِ بِتَناسيهِم حالَهُم ولو لِلحظَةٍ كما أفعلُ أنا؟

تِلك اللَّحظاتِ التي اشتَقتُ إليها رُغمَ أنّي لم أُفارِقها سِوى بِضعَةِ أسابيع

لا أعلمُ كيفَ سأعودُ إليها!

ولكن أولئكَ الذين لم يَتَذوَّقوا شيئاً منها، ما شُعورُهم؟

هل يشتاقون لمِثلِ تلك اللحظات؟

رُبَّما كانت مِن ضِمنِ أحلامِهم التي تعيشُ داخِلَ خيالاتِهِم البسيطة.

تساؤلاتٌ في اللاَّوعي

تساؤلاتٌ كثيرةٌ تَروحُ وتَجِيءُ بينَ تلافيف دماغي

وأفكارٌ تدورُ هُنا وهُناك دون أيّ مُراعاةٍ لِما ينتُج عنها مِن توتُّرٍ داخِلي

بِتُّ لا أعي ما يحصُل في هذا العالمِ المُدمَّرِ إنسانِيّاً

بِتُّ لا أستطيعُ استيعاب مَن يُمكِنُه حَلُّ كلِّ تلكَ المجاعاتِ المُتكَدِّسة

وإعطاء الأمل لِكلِّ تلكَ الوجوه العابِسة البائسة

كيف لِلإنسانِيَّة أن تنهَضَ والمصالِحُ تقِفُ فوق كُلِّ شيءٍ وتضحكُ ساخِرةً من طفلٍ مُشرَّد جائع

لا يقوى على النُّهوض؟

وكيف لي أن أخرُجَ من حالةِ اللاَّوعي التي دخلتُها دون أن أعرف لِمَ وكيف؟

خوف

دائِماً ما يُسيطِرُ عَلَيَّ الخوفُ

كثيراً ما أعيشُ حالَةَ اكتِئابٍ مَخفِيَّةٍ عن البشر

كثيرَةٌ هيَ مخاوِفي وكثيرَةٌ معها حالاتُ اكتِئابي

جميعَ مَن حَولي يَجهَلونَ كُلَّ ذلك

وكأني أعيشُ في عالمٍ لا يراهُ غَيري، ولا يعلَمُ مُحتَواهُ ودَواخِلَهُ سِواي

وكأني أعيشُ في عالَمِهِم فقط بِجَسَدٍ ضَعيفٍ ولِسانٍ قليلُ الكلام

وابتِساماتٍ فائَضةٍ أُوَزِّعها أينما وقعَت عيناي!

تغيَّرتُ عَنّي

أيُّ سِرٍّ أحمِلُه في قلبي، وأيُّ أُمنِيَةٍ سَرَت في أحلامي؟

أيُّ حنينٍ أحرَقَ أُمنِياتي، وأيُّ شوقٍ قطَّعَ أوصالي؟

أيُّ غُربةٍ تلك التي اقتحمَت سُكوني، وبعثَرَت هدوئي، وحطَّمَت جميع آمالي؟

أيُّ أملٍ هذا الذي أُنازِع مِن أجلِه كلَّ ما يجتاحُ حياتي من عواصِف؟

وأيُّ وهمٍ أغرَقتُني فيه رغبَةً بالحصول على ذاكَ الأمل؟

تَغَيَّرتُ كثيراً عنّي!

وتَغَيَّرَت جميعُ أوهامي، أفكاري، كلِماتي، حتى خواطِري

تغَيَّرتُ كثيراً كما تغيَّرَ ياسَمينُ بلادي مِن بياضٍ نَقِيٍّ إلى أحمر قاتِمٍ وخانِق!

كما تغَيَّر هواءُ دِمشقَ من رائحةِ وردٍ و فُلٍّ إلى رائِحةِ بارودٍ ونيرانٍ وحرائق!

تغيَّرتُ عنّي كَما تغَيَّرَت القلوبُ مِن صدقٍ ووفاءٍ يملَؤُها إلى كذِبٍ ونِفاقٍ وحقدٍ يتخلَّلُ زواياها الدَّفينَة،

تغيَّرتُ عنّي كما لو أنَّني بِتُّ لا أعرِفُني، أو أني لا أعرِفُ مَن أصبَحتُ وكيف!

أشرَقَت شمسُ يومٍ جديدٍ وفصلَت ما بيني وبين أمواجِ بحرٍ تُمعِنُ بالإصغاءِ لِأشباهِ كلماتيَ التَّائهةِ بين وعيِي وحالةِ اللاَّوعي التي اعتَلَتني.

أشرَقَت شمسُ الصباح وأخبَرَتني أنَّ الأمَلَ موجودٌ وعَليكِ التَّمسُّك بهِ مهما كانت الظروفُ والأحداث.

اليومَ عيد!

استيقَظتُ بِتثاقُلٍ وكسل

إذن اليومَ عيد!

أرتَدي قِناعَ السَّعادَةِ المُصطَنَعَةِ و أرسُمُ شِبهَ ابتِسامَةٍ مُزَيَّفةٍ على شَفَتيّ

لا أعلَمُ إن كانَ ما أفعَله صوابًا أو خطأً،

ولكِنَّ نفسيَ المُتراكِمةِ بالهُمومِ والذِّكرياتِ، والرَّاحِلةِ إلى غيرِ رجعةٍ لا تستَطيع الشُّعورَ بالفرحِ رُغماً عنها!

نَفسيَ التي فارَقَت الأصدِقاءَ الأحبابَ والوطن، والتي تَبَعثَرَ بها الشُّعورُ بِالرَّاحة

لا تستطيعُ أن تنسى كلَّ ما بِداخِلِها!

نظَرتُ إلى وجهِيَ المُنعَكِس على مِرآةٍ مُلقاةٍ أمامي

كان كئيبًا وشاحِبًا!

حاولتُ مسحَ الشُّحوبِ بِبعضِ الكُحل، هكذا أفضَل

احتَسَيتُ فنجانَ قهوةٍ وأحبَبتُ سماعَ أُغنِيَةٍ فيروزِيَّةٍ تعيدُ لي الذكريات

وقد أستَمِعُ لِمَقطوعةٍ موسيقِيَّةٍ بعدَها، لم أعلَم ما الذي يتَوجَّب علَيَّ فِعلُهُ بعدَ كلِّ ذلك فالفراغُ يُحيطُني

من كلِّ جانِب

والوطَنُ هُناك بعيدٌ وفي داخِلي صوتٌ يُناديهِ مُشتاقاً، يبكي لِحُزنِهِ ويصرُخُ لِآهاتِه

فكَّرتُ كثيراً به وراوَدَتني خيالاتٌ كثيرةٌ مِنها ما هوَ دُمَويٌّ ومِنها ما هو مأساوِي وأغلَبها كانَت دماراً وخراباً!

ساءَت حالتي وانقَبَضَ قلبي

صُداعٌ بدأ يَضرِبُ رأسي ويُقيمُ احتِفالاتٍ صاخِبة

لا بُدَّ لي مِن طريقةٍ أطرُدُ بها أفكاري السَّيِّئةِ حتى أنالَ قِسطاً من اتِّزاني، لم يَكُن أمامي سِوى أن أختارَ

كِتاباً لِأغرقَ فيه، وأتوحَّدَ معَ صفحاتِه، يَملؤُني ولا أَمَلُّ مِنه.

كلَّما غرِقتُ فيه تَرَفَّعتُ في حياتي وسُكوني أكثر!

كِتابٌ أقرؤُه حتى النِّهاية لِأعيش تفاصيلَ عيدي معَ شخصِيَّاتِه وأحداثِه، وبِذلِك سيَتسَلَّلُ الفرحُ إلى قلبي

ويُهَدِّئ من رَوعِه، سيكونُ النُّور الذي سَيَنشُر الأمان داخِلي والحياة التي أختارُها بِنَفسي لِأعيشَ قِصَّتها.

مِفتاحُ الخُروج

ذاكَ السَّرابُ الذي كان يُحيط بي يخدعُني بِشِبه أحلامٍ وبِضعِ أوهام، اختفى فجأةً!

هَلَعتُ و رجَفَ قلبي سريعًا ووهنَ جسدي وخارت قِواي، استوطنَ الخوف روحي، لم أكُن قد تَيَقَّنتُ بعدُ بأنَّه لا شيء، لم أكُن قد عرفتُ بعد بِأنه ليس سِوى سِجنٍ أغرَقتُ نفسي فيه فدخلتُ دوامةَ ضياعٍ و وساوِسَ كثيرة، تَراكَمَت فيها رغَباتي وأحلامي.

وقفَت خساراتي أمامي بِكلِّ استِهزاء قائلةً:

"ما هي الطريقة التي سَتُلغي وجودَنا فيها؟

ها نحنُ معكِ هنا في غرفةٍ مُغلَقَةٍ شِبه مُظلِمة، ننظُر إليكِ وأنتِ بِكامِل انكِسارِك وما بِيَدِكِ حيلَةٌ لِلخروج، دعينا نرى ما لديكِ، هيَّا!"

لم أعلَم ما الذي يجب علَيَّ فِعله، نظَرتُ إليها بِكثيرٍ من الضعفِ والهوان وهمست:

حقّاً، ما ذا أستطيع وأنا مُكبَّلةٌ بانكِسارٍ وبؤسٍ عميق؟

وغرِقتُ فجأةً بِدموعٍ تكادُ تُوصِلُني حدَّ الانهيار، سمِعتُ صوتَ همهمةٍ خافِتة، فأمعَنتُ السَّمع،

إنه صوتُ قلبي!

"لَدَيكِ مِفتاحُ الخروج، هو في أعماقِكِ

حروفٌ وأفكارٌ تُوَزِّعينَها بِتَأنٍّ على ورقةٍ بيضاء

ذاك الألم في قلبك اقلَعي جُذورَهُ وكُبّيه على الورق

أخرِجيهِ بِلا رحمةٍ ولا تجعَليهِ يَستَقِرّ في جوفِك

واعلَمي أنَّ تلكَ الانكِسارات يقتُلُها الأمل

تَسَلَّحي بالقلَمِ والأمل وأبحِري في عالمِ الحروفِ والكِتابة.

الكِتابة هي مِفتاحُ الخروج

فاكتُبي، واكتُبي، واكتُبي وعيشي!"

قُمتُ مُسرِعةً بعدها لِأُخرِج ذاكَ الدفتر المُخبَّأ في دولابٍ قديم

"حانَ دورُكَ لِتُساعِدني في رسمِ حياتي، فلنُبحِر هيَّا"

حِوارٌ مع ذاتي

- ما بالُكِ وقد أصبَحتِ صامِتةً، كئيبةً، ومُمِلَّة؟

- لا شيء!

سعيدةٌ بِصمتي و سُكوتي، مُترَفِّعةٌ بِكَآبتي عن جميعِ سخافاتِ الحياة الصَّغيرةِ المُلَوِّثَةِ لِلأفكار، والمُبَعثِرة لِلمشاعِر.

قلبي أصبَح فارِغاً، تملؤُهُ الوِحدَةُ واللاَّشيء، وأفكاري مُبعثَرَةٌ مُتناثِرة كالفوضى في حياتي،

آنَ لي أن أتغَيَّر!

تعِبتُ كثيراً من الرَّكضِ خلفَ الأحلامِ الكاذِبة، والتَّمَثُّلِ باللاَّشيء الذي كنتُ أراه كُلَّ شيء،

آنَ لي أن أضعَ حدّاً لِعدَمِ اتِّزاني، وأن أبني لي حُصوناً جديدةً أكثرَ متانةً، ثِقةً، و قوَّة

وأتَّخِذَ أفكاراً جديدةً أملأُ بها رأسي المُتراكِم باللاَّشيء حتى أطرُدَ كلَّ تِلكَ التَّراكُمات المُثقَلَةِ بِالتِّيه.

- هه

لم أفهَم مِن تُرَّهاتكِ شيئاً!

أرى أنكِ أصبَحتِ على ضِفَّةِ الجُنونِ والضَّياع؟

- لا، بل أخرجُ من دائِرةِ الجنون لِأبحثَ عنّي!

أنا في طريق إيجادي وانتِشالي من بؤرَةِ الضَّياع والتَّشتُّت

- وكيف ذلك، هَلاَّ شرَحتِ أكثَرَ مِن فضلِك؟

- في البِداية سَأُقصي رغباتِكِ جميعاً وأكونَ أنا قائدَةَ نفسي،

عُذراً، ولكِنَّكِ لَطالَما هدَمتِ جميع مُخطَّطَّاتي وأحلامي بِسذاجَتِك!

بعدها، سَأملأُ عقليَ البائس بالموسيقى والكُتُب حيث سأجعله يكون كلَّ مرَّةٍ على موعِدٍ مع بطلٍ جديد، وقصَّة جديدة، سأجعَلَهُ يعشَقُ الحياةَ أوَّلاً، ويتعلَّم كيفَ يكونُ مُتَّزِناً، قَوِيّاً لا يتَأثَّر بِكلِماتٍ وأوهامٍ غبِيَّة، سَيَرتَقي ويَتقَبَّلُ تَقَلُّبات قلبي ويَتَفهَّمُه بِكلِّ عطف.

أمَّا قلبي لِحينِها سَأُهديهِ قُبلَةَ حُبٍّ كلَّ يومٍ حتى يُحِبَّ عالمي الجديد، عالمي الصَّامِت ظاهِرًا والمليء بالحياة حقيقةً.

طائرٌ لا يطير!

صِرتُ واثقةً الآنَ بِأنّي لستُ سِوى تائهةً لا تعرِفُ ماذا تريد، وعن ماذا تبحَث!

لستُ سِوى غارِقةٍ في أوهامٍ وظلام

أتلَعثَمُ كثيراً في الكلام، وقد بدأَت تضيع مني الحروف والكلِمات.

غزاني الصَّمتُ، ولا شيء سِوى قليلٍ من الأمل المُغَلَّف بِيأسٍ مُتَسلِّل.

أتعَبَني الضَّياعُ، وأتعبَتني ذاتي التي لم تعُد تثِقُ حتى بِنفسِها!

ذاتي التي ابتَعَدَت عن الأحبابِ وآثَرَت الضَّياعَ وحيدة

أتعَبَتني ذاتي التي لم تعُد تعرِفُ ماذا تُريد،

مرَّةً تتعلَّقُ بِحلُم، وتارَةً بِوهم، وكثيراً ما تَعَلَّقَت بِسراب!

ذاتي التي بدأتُ أبتَعِدُ عنها بَدَلاً من أن أُحِبَّها،

كثيراً ما رجَوتُ مِن اللهِ أن يَبُثَّ فيها طمأنينَةً و أماناً وحياة، ولا زِلتُ أرجوه

كفراشةٍ مكسورٌ أحدُ جناحَيها أصبَحتُ

خسِرَت جِنحَها القوِيَّ الجميل

والآخَرُ لا تستَطيعُ الطَّيرانَ به!

فما العمل؟

لَيتَني حجرٌ لا يشعُر ولا يَلينُ، لا يرِقُّ ولا يستَكين

ليتني شجرَةٌ لا تنحني

ليتني طائرٌ لا يطير!

لا تُهاجِموني بانتِقاداتِكم قبل أن أُكمِلَ حديثي!

ليتني طائرٌ لا يطير كي لا أرى حروبَكم ماذا فعَلَت بأرضِ وطني!

رؤيةُ الدَّمار من الأعلى مُوجِعٌ وقاتِلٌ أكثرَ من ألمِ طائرٍ لا يستطيع أن يطير.

لا تَيأَسِي!

وحيدةٌ في غُربتي أَنظُرُ إلى اللاشيء

أُحَدِّقُ في المدى الباهِتِ الكئيب

يتسَلَّلُ شُعورٌ باللاَّمُبالاةِ أحياناً

وبِاليأسِ من غُربةٍ حمقاءَ في أحيانٍ أُخرى

صوتٌ داخِلي يصرُخُ بِصوتٍ يُشبِهُ النَّحيبَ والقوَّة معاً

"شِتاءٌ دافئٌ آتٍ قريباً، لا تَيأسي"

صمت

وسَطَ كُلِّ ذاكَ الضَّجيجِ المُحيطِ بِوطني

نحتاجُ لحظةَ صَمتٍ تُعيدُ لنا قليلاً من أحلامِنا المفقودة، وحياتِنا المسلوبة

حياتِنا!

تِلكَ التي لم تعُد كالحياة، تِلكَ التي تحوَّلَت لِلسَّراب!

سرابُ غُربة

ويَسألُني عن اسميَ المَنسِيّ عابِرٌ!

فأُجيب: قبلَ المَنفى بِرحيلٍ كان اسمي مُرتَبِطاً بِوطن،

والآن باتَ مُعَلَّقاً في الفناء!

فإذا ما لامَستُ طيفَهُ تحوَّلَ لِسرابِ غربة.

القصيدة اللاَّموجودة

على رصيفِ الكلِمات أمشي مُتهادِيَةً أتوهُ بين الحُروفِ وأغرَقُ في مِياه الأفكار مُتعَمِّدة

فأخرُجُ بعدها بِقصيدَةٍ، ورُبما خاطِرةٌ نثرِيَّة تُهَدهِدُ في الليلِ حنينَ الماضي البعيد.

لِلحُبِّ قصيدَةٌ كتَبتُها يوماً ولم أُفصِح عنها

خَبَّأتُها بين دفاتري وأوراقي، بينَ ذكرياتي وألعابي الطُّفوليَّة التي ما عُدتُ بِحاجةٍ لِأن ألعبَ بِها

كبُرتُ الآن ونسيتُ الألعاب

نسيتُ كلَّ ما أخبرتُهُ لِلألعاب!

أذكُرُ مرَّةً بِأني أفصحتُ لِلعبةٍ عن حُبٍّ طفوليٍّ كَبُرَ مع قلبي الصغير، وتمادى في دلالِه حتى استَوطَن

عقلي وجميعَ الأحلام، وعندَما ظنَنتُ بأني وصلتُ الحُلُمَ المنشود قامَت الحرب!

وقتَلَت ألعابي وسِرّي المحفوظ، قتلَت ابتِسامتي وشغَفي الذي كانَ بالصِّدقِ محفوف

اغتالَت أحلامي وجميعَ ذكرياتي

اغتالَتني وأخذَت مني ذاكَ الحبيب!

وبقيتُ أنا في غُربةٍ بعيدَة بلا لِعبَةٍ، بِلا ذِكرى، بِلا حُلُمٍ منشود

وحدي أُصارِعُ وِحدَتي بِلا لِعبَتي

وحدي أُعاتِبُ نفسي على قصيدةٍ ضاعَت في الأفُقِ البعيد قبلَ أن أبوحَ بِسِرّي المحفوظ،

قبلَ أن تقوم الحربُ ويَضيعَ هوَ، وأضيعَ أنا في عُمقِ القصيدةِ اللاَّموجودة.

بِخَيالي

ما زالَ لَديَّ قليلٌ من أملٍ

وياسَمينَةٌ يفوحُ عِطرُها بِخيالي

لِتأخُذَني بعيداً حيثُ اللاَّخِداع!

حيثُ لا يُعرَفُ اسمٌ لِلخيبة

حُلُماً ذابِلاً

هُناكَ حيثُ أحلامي تتساقطُ حُلُماً تِلوَ الآخر

ذهَبتُ بَعدَ أن استَجمَعتُ قِوايَ لِأعرِفَ سبَبَ السُّقوط المُتَتالي ذاك

وَجَدتُني أجلِسُ تحتَ شجَرةِ أحلامي حُلُماً ذابِلاً يكادُ يلتَقِطُ أنفاسَهُ الأخيرةَ!

نظَرَ إليَّ بِأسى:

"لا تُحاوِلي أن تَحلُمي مُجدَّداً، ثَمَّةَ واقِعٌ أسودَ يُحيطُ بكِ ولِلأحلامِ لونُ قوسِ قُزح!"

أقاويل!

أمتلِكُ بين ضلوعي قلباً يحتضِنُ وطناً بعيداً فيه من الألم والجروحِ ما يُساوي العالم أجمع

فيه من الدموعِ ما يُغرِق قارةً بحالِها، وطنٌ يسكن حناياي ولا أستطيع الوصول إليه

ظلامٌ دامِسٌ يحتلُّ ربوعه وثراه، وأصواتُ عويلٍ وصراخٍ تضجُّ به في كلِّ مكان

ثمة طفلٌ في وطني يحتضِنُ لِعبةً من قُماش ويقول في صمتٍ قاتلٍ مخنوق:

ليتَ اليدَين التي صنعتكِ تعود من جديد!

منذُ شهورٍ وأنا أتلمَّسُ بقايا بصماتٍ دُفنَت ذات أمسٍ قريب

ليتَ لي عقلَ رجلٍ يستوعِبُ بأنَّ من دُفن لا يعود، ولكني بتُّ أرى الرجال على هذي الأرض يبكون موتاهم بلا وعيٍ ولا تفكير،

بِتُّ أرى الرجال يصرخون من هولِ نارٍ ابتلعت الكثير!

ابكِ ما شئتَ من الدموع يا طفلي، واصرخ ما شئت

فنحنُ في زمن العويل!

نفتحُ شاشاتٍ اختُرِعَت للترفيه فلا نرى خلالها سوى موتاً أحمر وأقاويل!

أقاويل!

جميعهم يقولون ويتحدَّثون،

لكن هل من أحدٍ وقف بوجه الموت والظلمِ صارخاً بصوتٍ من حديد؟

كفانا حروباً ودعونا نستريح!

داخل قلبي وطنٌ لو بحثتُ عن مثلِه في الدنيا وما فيها ما وجدتُ أطهر من وطنِ الياسمين

دمشقَ..

لي بين حاراتكِ وشوارِعِكِ ونسماتِك روحاً أبَت أن تستقِلَّ معي طائرة الرحيل

أبت إلا وطناً ينبِضُ بشجرةِ زيتونٍ وشُرفةٍ تُطلُّ عليها فهل من سبيلٍ لِذاكَ الحنين؟

قِنديل أمل!

تتوهُ بنا الدروب وتُوصدُ الأبوابُ في وجوهِنا أحياناً

طويلٌ ذاك الطريقُ مليءٌ بالعثراتِ والخطوب

لكننا نمضي به بكلِّ ما أوتينا من قوة، ثمةَ إيمانٌ خفيٌّ داخلنا يهمسُ دوما:

"امضِ فالطريقُ لكَ في النهاية، إياك أن تيأس، هاكَ قنديلُ أملٍ وضعتُهُ مُتوقِّدًا في قلبِكَ

إياكَ أن تطفئه!"

نسمع منه ونعودُ لِلسعي مُجدَّداً إلى أن نُلاقي جحيما مسعورة!

نُحاولُ الثبات، بعضُنا يقدِر ويحاول الخلاصَ مُكابِرًا،

وبعضُنا مجبورٌ على التحمل لا يملِكُ من أمره شيئاً، والبعض الأخير يلتحِف - بإرادتِه أو بِدونها - غُربةً تكادُ

تكون أشبهَ بقُضبانٍ من جليدٍ بارِدةٌ جُدرانها حدَّ الصقيع، ضيّقةٌ هي حدَّ الاختناق، كلٌّ شيء فيها على

سبيلِ الحياة بتدبيرهم، وكأنَّ الحياة مِلكهُم وحدهُم وعليهم الأمر وعلينا التنفيذ

إن أرادوا عِشنا وإن لم يشاءوا بقينا في مكاننا قابِعين!

نسألُ عن ذاكَ القِنديلِ داخِلنا!

هل أثَّرت فيه غُربتُنا؟

يعودُ ذاك الإيمان لِيهمِس لنا:

"اطمئن، هو قنديلُ الله وقنديلُ الله لا ينطفئ"

تُسفِر شفاهنا المُتعبة عن شبحِ ابتسامةٍ ونهمِسُ بالحمد ثم نحاوِلُ معرِفةَ ما إن كنَّا تغيَّرنا

نتفحَّصُ وجوهَنا وملامِحنا، أحلامنا وآمالنا وحتى ابتساماتِنا التي كانت مُشرِقة نجدُها قد تغيرت كثيراً

حتى أننا كِدنا ننسى كيف كانت!

تبدَّلَ الزمن وتبدَّلَ حالنا معه

وحده قِنديلُ الله بقي مُشتَعلاً يبعَثُ أشعّة أملٍ تضيء جدران قلوبِنا النابِضة بالحياة رُغماً

عن أنف المآسي والظروف!

البعضُ لايريدُ أن يعترِفَ بذلك النورِ في قلبِه، فتجدَه يائساً مُتخبِّطاً

والبعض رُغم أن كلَّ ما كان يتسلَّح به من أملٍ غاب وخسِره إلاَّ أنه مازال مُتمسِّكا بقنديلِ الله مؤمنٌ به.

قَطفةُ أملٍ لذيذ

لم أختر يوماً أن أكون مجرَّدةً من الأحلام، كنتُ أعيشُ حالة بحثٍ دائمٍ عن حلُم
حتى عندما كنتُ أفشل وكثيراً ما فشلت، كنتُ أقفُ من جديد لأحلم ثانيةً
لن أخجلَ أبداً من اعترافي بالفشل لأني بدونه ما كنتُ لِأصرَّ على شيءٍ يوماً!
بعض الأشياء السيئة والانكسارات في الحياة ما خُلِقت إلاّ لِتصنع من أرواحِنا ذاكَ المُقاتلَ العنيد الذي لا يهدأ حتى يصل لِمُبتغاه.
أحياناً تُجبرُنا الظروف على نسيانِ تلك الأحلام لأن الأبواب قد أوصِدَت في وجوهنا، لكنَّ ذلك لا يعني أبداً الاستسلام أو القُنوط، فَربَّما لم يكن الخير حليفاً لنا إن مضينا فيه ولن يتغيَّر أيضاً من الأمرِ شيئاً إن دخلنا عالماً أسود من اليأسِ والاكتئاب، بل ستزداد الأمور سوءاً!
لا أنكِرُ أبداً بأني لم أدخل ذلك العالم مرَّاتٍ عديدة، وبأني لم أكن أملكُ من أمري شيئاً
لأن بعض الأمور نفعلها بدون وعيٍ منا أو قدرة على السيطرة، حينها يكون الضعفُ هو المُسيطر الأكبر!
لكني عندما كنتُ أستوعب حجم الضياع الذي ارتكبته أجدُني وقد أصِبتُ بالصدمة!
تلك الأيام التي تقوقَعتُ فيها يائسة كنتُ سأحصد فيها الكثير من الإنجازات والنجاحات صغيرةً كانت أم كبيرة، فأقفُ مجدَّداً لِأخلع ذاك الرداء بقوَّة العارِف للحقيقة، وأبدأ البحث عن فرصةٍ جديدة وعن حلمٍ جديد لِأختلِق منه حياةً جديدة.
لا ضيرَ من الفشل، ولا مهربَ من الحُزنِ والاكتئاب عندما تتهدم الآمال، لكنَّ القوة تكمُنُ بِالوقوفِ من جديد، والبدءِ من جديد!
فجميعُ البدياتِ على اختِلافِها جميلة وتستحقُّ عَيشَها وقطفَ ثمارِ الأمل اللذيذِ منها.

مرايا وعيونٌ مُخادِعة

على متن القلقِ جالِسةٌ بكامِلِ خوفي، أرى أحلامي أمامي تتهاوى حلُماً تِلوَ الآخر، ألمحُ طيفاً بعيداً يُناديني بِكلِّ حُب.

صوتٌ داخِلي يُلِحُّ عليَّ لأن أُلَبِّيَ النداء، حتى أنَّ قلبي خفقَ سريعاً لِأوَّلِ مرةٍ بِشغَفٍ وكلُّهُ حياة

قلبي الذي لم يَخفُق يوماً لِأيِّ شيءٍ كانَ سِوى لِلحروفِ وبعضِ الأشكالِ والرسومات، لم يخفُق يوماً سِوى رهبَةً وربَّما استِياء.

قلبي الذي اعتاد دوماً أن يبقى في مؤخِّرةِ قِطارِ الحياة وحيداً لا يلوي على شيءٍ سوى الانتظار!

انتِظارِ حُلُمٍ طالَ وطالَ ولم يتحقَّق بعد!

أحياناً يُخَيَّلُ إليَّ بأنَّني فقط خُلِقتُ من أجلِ انتِظارِ ذاك الحُلُم، وهو في الواقع مُستحيل الحُدوث!

بعضُ الأحلامِ في الحقيقة مجرَّد أوهام، سبَبٌ نلتَحِفُه من أجل أن نعيشَ لِتحقيقِ شيءٍ ما، رُغم يقينِنا باستِحالتِه إلاَّ أننا لا نُريدُ أن نحيا بالفراغ .

على قيدِ الأحلام نحيا وإن لم تكن، وإن لن تكون!

هي مُجرّد وسيلَةٍ واهِيَةٍ من أجل الإمساكِ بِخيط الأمل

أظنُّ أني لمحته، وربما هو من كان يُناديني!

أخيراً قرَّرتُ اللِحاق به وبكامِلِ وعيي نسيتُ انتظار حُلمي القديم، وربما يئستُ منه ورحتُ أبحثُ عن آخر

فهُناك الكثيرِ إن تأمَّلنا وأصغينا لموسيقى الكونِ المُختبئة خلف الضجيج العارِم.

خانَتني قَدمايَ مُجدَّداً وكأنَّها لا تَملُّ أبداً من تذكيري كلَّ مرَّةٍ بضعفي!

مرَّةً أخرى، وقفَت مِرآةٌ خبيثَةٌ لتعكِسَ على مرآيَ صورةً لِجسدٍ يحمِل من التشوُّه ما يعادِلُ القُبحَ و الإختلاف!

أكذِبُ إن قلتُ بأني لم أحاوِل كسر تلك المرآة اللعينة، لكِني جبُنت وتردَّدت، فهُناك الكثير منها!

فكَّرت: هل سأقضي حياتي وأنا أكسِر تلك المرايا المُتناثِرة حولي كأوراق الخريف الصفراء الكئيبة؟

كثيرةٌ هي ولن أتمكن من كسرِها جميعاً

لِذا قرَّرتُ أن أختَبئ من كلِّ مِرآةٍ قد توجد في طريقي، أن أحاوِلَ إقناعي بأن لا مرآة ستُشوهني بعد اليوم، وبأنَّ كلَّ المرايا تكذِب وأنا وحدي الصَّادقة، وبأنَّ تلكَ العيونَ التي تراني كما المرايا عمياءٌ مُخادِعة.

أنا لستُ كما يرون!

أنا ملاكٌ أزرقُ يتبعثرُ أثرُه في الأرجاء حُلواً بينما يتراقصُ فرحاً بين الغيوم

هذا ما أخبرَتني بهِ زهراتي الثلاث القابِعات وسط غرفتي ذات وِحدةٍ!

أحبَبتُ ما قالَتهُ واقتَبَستُه وصارَ جزءاً لا يتجزَّء من حياتي

عندما تتساقَط دموعي يأساً وحزناً كانت تُذكِّرُني بأنَّ هناك من يراني بِطريقةٍ مختلِفةٍ عن الآخرين

كما أراني تماماً في أحلامي، وكما زهراتي تراني

ملاكٌ أزرق.

أوكسيجيني الخاص بي!

ظلامٌ دامس أحاطَ بي فجأةً!

رأسي باتَ ثقيلاً وانعدَم توازُني، فقدتُ السيطرة على أعصاب أطرافي، دارَت الدنيا بي وسقطتُ أرضاً!

خفقات قلبي تزدادُ سريعاً وجسدي بأكمله يرتجف!

خارت قِواي وضعُفت قُدرتي على التنفس، أحاولُ أن ألمِسَ ماحولي لِأعلم ماحدث، لِأحاول البحث عن الضوء، لكنني أفشلُ وأشعر بالعجز، فلا أجد سبيلاً سِوى أن أصرُخ بذعر " أمي !"

لِتأتي مُسرِعةً إليَّ بالضوء، فأعود لِلحياة من جديد!

الكثير مِمَّن حولي يعلمون بأني أخافُ الظلام ويعتقِدون بأن خوفي كالأطفال ليس سِوى دلالاً، لكنَّ الحقيقة هي ما أخبرتُكم!

نعم، تلك الدقائق التي ينعدِمُ بها الضوءُ من حولي تجعلُ مني فتاةً عمياء عاجزة عن فعل شيء!

كثيراً ما حاولَت أمي إطفاء الضوء أثناء استِغراقي بالنوم مُعتقِدةً بأني لن أشعر بذلك ولكني أصحو كالمذعورة في أغلب الأحيان، وكأنَّ الأوكسيجين انقطع فجأة عني!

لذا أنام مع الضوء "أوكسيجيني الخاص بي"

هل حدث وأن تخيَّلتَ نفسَكَ داخل دوامة سريعة الدوران وأنت تحاولُ النجاة بنفسك مِنها مُتناسِياً كلَّ ما حولك؟

هذا ما يحدثُ داخل رأسي حين ينقطِع عني الضوء، أو حين أجلِسُ في الظلام، وهذا ماكنتُ أشعُرُ به في سوريا كلَّما انقطعت الكهرباء ليلاً، أصاب بالذعر ليس من الظلام بل من العجز الذي يجتاحُني!

كنتُ عند الغروب أجلِسُ بمكاني على سريري أو بجانب أمي مُلتصِقةً بها لأنتظِر صراعي مع هذه الآفة حينما تنقطِع الكهرباء ويعُمُّ الظلام، وكانت أمي تُشعِل شمعةً تضعُها أمامي حتى أشعر بالأمان فأبقى مُستيقِظة أنظر إليها وكأنها مُنقِذي الوحيد إلى أن يغلِبني النوم، وكثيرا ما كنتُ أنامُ في الصباح!

قد تسألون أنفُسكُم الآن عن سبب ذكري لهذه المُشكِلة التي كنتُ أخجل في الحقيقة أن أفصِح عنها أمام الآخرين!

قِراءتي لقصة هيلين كيلر ذات الإعاقة المزدوجة "فقدان البصر والسمع" أعادَت لذاكِرتي تلكَ المشاعر، وجعلتني أفكِّر بالأمر ملِيّاً

إنني أعاني فقط عند انعِدام الضوء بالمقارنةِ مع معاناتها التي كانت دائمة مُستمرَّة

لكنَّها استطاعَت التغلُّب عليها بإرادتِها!

عجزتُ عن تخيُّل أنَّ بِمقدورِها الوقوف على قدمَيها والمشي أيضاً وفعل كلِّ شيء في الظلام!

في حين أني لم أستطِع حتى الاعتياد على مُشكلتي، وكل مرةٍ كنتُ أصابُ بذاتِ الذعر.

ثمَّة أشياء كثيرة لا نُدرِك أهميتها إلاَّ عند فقدانِها ولو كانت بسيطة، وننسى دوماً أن نحمِد الله خالقَها ومانِحنا إياها أحمدُكَ ربي على نِعمة إبصاري للضوء ومعرِفة قيمته جيداً عند فقده، وأشكرُكَ على منحِك إيَّاي فرصة معرِفة هيلين التي لن أنسى إصرارها طوال حياتي .

احمدوا الله على تلك النعم الصغيرة والبسيطة قبل الكبيرة ، ربَّما كان فقدانها يعني الغرق بالآلام والصراعات النفسية اللاَّ مُتناهية!

أهداني القدرُ وطنًا

وأنا تائهةٌ في هذا العالِمِ المُقفِرِ إلا من الأسى والظلام، أتعثَّر باللَّاشيء، أقعُ أرضاً وأتلوثُ بدماءٍ

حسِبتُها من وطني، ولكنَّ لحظةَ إبصارٍ مفاجئةٍ على الحقيقةِ صَدَمَتني صافِعةً إيايَ بكفٍّ من قسوة، ويحكِ!

ألم تُغادري الوطن حامِلة أمتِعتكِ قاصِدةً الرَّحيل؟

ألم تندبي حظكِ العاثِر كلَّ ليلةٍ على سهركِ تحت سماءٍ ليسَت لكِ، ووجودكِ على أرضٍ ليست أرضَكِ،

وشربِك من ماءٍ ليست من حقك؟

ألم تتمني الموتَ ألف مرة على لجوئكِ لِوطنٍ رفض احتِضانكِ وما زلتِ تواظبين التنفس من هوائه رغم

علمِك بأنه لن يُغيِّر موقفه بشيء؟

ثُمَّ إنَّ ما تعتقِدينها دِماءً ليسَت كذلكَ في الحقيقة، لاتندهِشي، هي بقايا أوهامِك البالِية، ومحاولاتِكِ الفاشِلَة لِلتغيُّر.

ويحكِ!

متى ستفهمين فيزيولوجيا القلوب؟

الحُب والتقبُّل لهما أنظمة سرية، مُعقَّدة،لهما سيكيولوجيا عجيبة من الصعبِ على فتاةٍ وضيعةٍ مثلِكِ معرفتها

ليس أنتِ فحسب، فمنذ عصور والإنسان يحاوِلُ فهم تلك المعجزة المُسمَّاة بالقلب

هو معجزة حقاً، خلقها الله للمحبَّة والمودة والتراحم، نعمة أودعَها الإنسان حتى يُحبَّ لِيعيش،

ويحتضِن قلوب البشر جميعا من كِبارِ قاماتٍ أو فقراء ومنفيين.

كم تُشبِهني هذه الكلمة "منفيين"!

منفيَّةٌ أنا منذُ الأزل

مرة داخل صندوقٍ مُحكم القبضَة كالسجن!

ومرة داخِلَ وهمٍ اختَلَقتُهُ من تِلقاءِ حماقتي، وأخيراً خارِجَ وطني لِأكون هنا غريبةً، مُقطَّعةُ الأوصالِ والأحلام

كيفَ لِلقلوبِ التي خُلِقَت للمحبَّة أن تعتنِق الحُروبَ والقسوةَ أسلوبَي حياة؟

كيف لها أن تُآثِر المصالِح على حسابِ الأبرِياء لِتمشي بآلةِ الموتِ على أجسادِهِم و الفقراء؟

كيفَ لها أن تُعذِّب أرواحاً أُبعِدَت وتاهت بينَ أشرِعة المَهاجِر لا تلوي على شيءٍ سوى الأمان!

شعرتُ لِلحظةٍ بالإختناق، كِدتُ ألفِظُ آخرَ أملٍ لي في هذا الكون المُعقَّدِ، لو لا أنَّ صوتاً همسَ بأذني همساً فيه من الحنانِ ما غطى هذا الكوكبَ المُشوَّه بالألم:

"لن تكوني وحيدةً بعد اليوم، منفاكِ هُنا في قلبي لكِ كلُّ الحُقوقِ المشروعةِ بالتصرُّفِ والحلم،

لكِ كلُّ ما تشائين من غاباتِ الأمل، وأشجارِ السعادةِ،

أما عن ثمارِ نجاحك فسأقطِفها لكِ بيدَيَّ ثمرة، ثمرة

أما عن ذاك الوطنِ البعيد، فهاتِ يديكِ وانهضي أنا وطنُكِ الخاصُّ طيلة عُمُرِك!

هاتِ يدَيكِ أحتضِنُما وقلبَكِ المُرتَجِفِ هذا ريثما يقرعُ القدرُ أجراسَ الرجوع

هاكِ زهرةٌ زرقاء مني تُجسِّدُ حُبي العميقَ لكِ

بوحي لها بما تعثَّرَ به لسانُكِ ريثَما تعتادينَ عالمَكِ الجديد"

استفقتُ بعدها من سكرةِ التيه لِأجدَ بأني لم أتعثَّر بشيء سوى بقلبِ أحدهم و زهرة!

بقيتُ أُردِّدُ فرحاً وكأنما السماء أمطرَتني بالأملِ فجأةً:

"قد أهداني القدرُ وطناً!"

غَيمَة

ثمَّة غيمةٌ مِن حياة على سفوحِ أحلامي

غيمةٌ على هيئةِ حُب، على هيئةِ ابتِسامةٍ أبديَّة!

تسليم

أحكمتُ ذاتَ لحظةِ ضعفٍ إغلاقَ قلبيَ المُتعَب

حاولتُ جاهِدةً إخفاء مفاتيحِهِ عني، وما إن أطَلَّ ذاك الوسيمُ في حياتي

حتى سَلَّمتُه قلبي و مفاتيحَ الأقفال!

مِفتاحُ صول

ويَبقى حُبُّكَ مِفتاحُ صولٍ يعزِفُ أروعَ ألحانِ حياتي

يبقى لحناً نادِراً و مُمَيَّزاً لن أرى مِثلَهُ يوماً، ومِثلَهُ لن يكون!

بِكَ أنت!

طويلٌ ذاكَ الطَّريقُ إليك

كأنَّهُ لا ينتَهي

كأنَّني أضَعتُه وضَلَلتُ في ظلامِ الشَّوقِ إليك!

كيفَ الطَّريقُ إلَيكَ يا سَراباً يعيشُ داخِلَ أوهاميَ المحظورَةِ

بِكَ أنتَ ولا شيءَ غيرُك؟

جوفِ اللَّيل

كُثُرٌ هُم السَّاهِرونَ في جَوفِ اللَّيل

ولِكُلٍّ وِجهَتُهُ التي تَعنيه!

على غيرِ العادة!

سأُسَمّي هذا الصَّباحَ باسمِك

فهو غريبٌ وأشعُر أنه كئيب

وأنا وحيدة

احتَسَيتُ قهوَتي على عجل

ولم أعلَم السبب

سمِعتُ موسيقايَ المُفضَّلة وكتَبتُ لكَ بِضعَ حُروف

لكنَّكَ مازِلتَ في عِدادِ الغائبين!

ما زِلتَ تلتَحِفُ رحيلَكَ الطويل،

ولم تَحضُر!

لِذا، سأجعلُ اسمكَ الحاضِرَ في صباحي

ثمَّة عصفورٌ يُغرِّد، لكنَّ صوتَهُ على غيرِ العادةِ، بدا مُزعِجاً!

شعَرتُ بِالضَّجر، وبِأنّي في غابةٍ من الضَّوضاء

بِجانِبي زُجاجةُ عِطرٍ شِبهِ فارِغة

تنَشَّقتُ رائِحَتها، لم تُعجِبني على غيرِ العادةِ!

لطالما عشِقتُ العُطور، ولا زِلتُ طبعاً

لكن، ما الذي يحدُث الآن؟

سأُبعِدُ تلكَ الأفكار السوداء عن رأسي

وأُقنِع نفسي أنَّ السَّبب في ذلك ليسَ سِوى إصابتي بالزكام!

ذاك الزُّكامُ الخبيثُ أفقدَني صَوابي!

أتَعلَمُ شيئاً؟

أخبرتُ حروفي بِأنَّ الصَّباحَ هو أنتَ في غِيابِك

فأبَت أن تتشكَّلَ معي لِأُرَتِّبَ بها قصيدةً تليقُ بِغِيابِكَ الحاضِر،

أو بِحُضورِكَ الغائِب!

لا أعلَمُ حقيقةً ما هي الجُملةُ الأصَح

لكن ما أنا مُتأكِّدةٌ منه هو أنَّ هذا الصَّباحَ أصبحَ غامِضاً وعلى غيرِ عادَتِه

عِندما أعطَيتُه اسمك!

ثرثَرةُ الصَّباح

وقلبي أزرقَ يُحِبُّ الحياة

لكن، ما معنى أن يكونَ قلبُكِ أزرقاً أو أحمراً، ما الفرق؟

حسناً، سؤالٌ ربما يكوُن بِمكانِه حقّاً

القلبُ الأزرقُ يا صديقي قلبٌ يحمِلُ مِن الأملِ ما يفوقُ التَّصَوُّر

ومِن التَّفاؤلِ ما يُغطي اليأس

ومِنَ الابتِسامةِ ما يُغطِّي الحُزن والكآبة

قلبٌ يحمِلُ بينَ طيَّاتِه صبراً يُشتِّتُ الألم

قلبٌ مُمتَلئٌ بِحُبٍّ صادِقٍ رقيقٍ وكبير، يكفي العالمَ أجمَع

أتعلمُ ما معنى أن يكونَ قلبي أزرقَ يا صديقي؟

لا بأس، أعلمُ أنه كان سؤالَكَ منذُ البِداية

أن يكونَ قلبي أزرقاً يعني أن أرضى بِقَدَري الأليم

لِأنالَ جائِزةَ صبري و رِضايَ بِكُلِّ فرَحٍ وأملٍ وتفاؤل

وأن أنتَظِر يوميَ الموعودَ وأنا أمتَلِكُ اليقينَ بِأنَّ الله قادِرٌ على أن يَهبَني إيَّاه

أظنُّ أنَّك ملَلتَ كلِماتي المُبعثَرَة، أليسَ كذلِك؟

لِنَقُل بِأنَّ قلبي الأزرق هو الحياة التي أعيشُها وأحلُمُ بها معاً

بِكِلا الحالَتَين سأكونُ كتلةَ أمَلٍ كبيرة لن تَضعُف!

بالمُناسبة، ما رأيُكَ أن تمتَلِكَ قلباً أزرَقَ كقلبي؟

- لا أعلم، سأُفكِّرُ بالأمرِ لاحِقاً

عَلَيَّ أوَّلاً تفكيكُ شيفراتِ فلسَفَتِك العميقَةَ

أتَرغَبينَ بِفِنجانِ قهوة؟

- إن كانَت بِلا سكَّر لا بأس، سَأشربُها لِأجلِك، كما تعلم أنا لا أُفضِّلها

يا صَديقَتي

غَيَّرَتني سِنينُ الغُربَةِ يا صديقتي

لكِنَّها لم تُغَيِّر عادَتي بِالضَّحِكِ وسطَ غَيمَةِ بُكاء

فَراشَةٌ مَبتورَةُ الجناحَين

صديقَتي ..

بِبُعدي عنكِ وعن الوطن

لَستُ سِوى فراشَةٍ مَبتورَةُ الجناحَين

في مُخَيِّلَتِها الكثيرُ منَ الأحلامِ

لكِنَّها عاجِزةٌ عن التحليق!

شرنقة

والصَّمتُ يلُفُّني كَفَراشَةٍ ما زالَت في شَرنَقة!

كلِمةٌ في غيرِ مَوضِعِها

بعيداً عن كلِّ الظُّروفِ المُعتِمة، والأحداث المؤلِمة

ثَمَّةَ ما يَدعوني لِأن أَشتَهِيَ أن أكون شمعَةً وسَطَ الظَّلام

والعَجيبُ بِالأمرِ أنِّي أخافُ العَتمة!

بل أنَّ خوفي مِنها تَحَوَّلَ إلى فوبيا مع مُرورِ الزَّمن

غريبَةٌ الحياةُ بِتَناقُضَاتِها!

وأتَساءَل: هل لِلعَتمةِ علاقَةٌ بِكاتِبةٍ مُبتَدِئة؟

يَهمِسُ ذاكَ المكانُ العميقُ داخِلي:

((ذلكَ الخوفُ داخِلَكِ هوَ مَن يَصنَعُ قُوَّتَكِ واتِّزانِك

حيثُ أنَّ أصدَقَ الكلِمات تخرُجُ مِن قلبٍ خائِف

إذ لا تَلاعُبَ بها ولا حتى تَبديلٍ بِغَرَضِ الأناقة والترتيب!))

أُمعِنُ السَّمَعَ وأنا مُوقِنَةٌ بِأنها الحقيقة

وأُمسِكُ قلَماً وأكتُبُ على ورَقَةٍ بيضاءَ فارِغة كلِمة

((كِبرياء!))

لا عِلمَ لي صَراحَةً ما علاقَةُ تِلكَ الكَلِمةُ بِالحديثِ الذي دارَ بيني وبينَ أعماقي،

لكِنَّها الكلِمةُ الصَّادِقةُ التي خرجَت لِتُثبِتَ وجودَها عُنوَةً دون جُهدٍ أو عناءٍ بالتَّفكيرِ بِها أو البَحثِ عنها لِإيجادِها!

قد تكونُ عُنواناً لِقصةٍ سأكتُبُها يوماً

أو أنَّها لِقِصَّةٍ ستُصادِفُني وأكون أنا البَطلَةَ فيها!

فائضُ أحلام

جميعُنا لَدينا فائِضٌ من الأحلام

وعلى جميعِنا تَرقُّب إشاراتِ القدر بِكثيرٍ من الأمل

إصرار

سَأجِدُ الطريقَ يوماً إلى ذاتي

إلى ما يجِبُ أن أكون

خواطر وطن

ستُشرِقين يا دمشق

أيا وطناً أحنُّ له

يسكُنني ولا أسكنه

قريبٌ هو مني قُربَ الوريد لِقلبي

بعيدٌ هو عني بُعدَ المسافاتِ الطِّوالِ

ياسمينةُ أملٍ فوَّاحة وسط الحروب

وقاسَيون صامِدٌ رغم الغُروب

ستُشرِقين دمشقَ قريباً

كما تُشرِقُ كلَّ يومٍ شمسُ الصَّباح!

وطن السلام

داخل كل منا وطن يسكنه

رغم البعد والمسافات الطوال

رغم الحرب التي تشوه معالمه وتدمر أجمل مافيه

رغم القهر الذي يلبس ملامح أبناءه المحاصرين والجائعين والمقتولين في قبورهم وعلى أرضه

رغم الفقر الذي احتل ملامحه وعذَّبَ أبناءه

رغم النيران والدخان الذي امتزج حتى غطى رائحة ياسمينه

ورغم الكذب والنفاق الذي يسيطر عليه وعلى استقراره وهدوءه

يبقى الأجمل والأشهى

الحلم المبتغى والأمل فيه ومنه ينبت

يبقى قاسيونه الأبهى وترابه الأطهر

يبقى وطني مهما حدث وطن السلام

أينَكَ يا وطن الياسمين؟

حتى الآن

لم أستطِع الوصول إلى السَّلامِ النفسي

والطَّمأنينة الروحيَّة داخلي

وأنا أتنَشَّق نسمات وطنٍ ليسَ لي

رُغمَ مُحاولاتي الكثيرة

إلاَّ أنَّها جميعاً باءَت بالفشل!

ورغمَ تظاهُري بالسعادة

إلاَّ أنَّ روحي أرهقها التَّعب

أينَكَ يا وطَن الياسَمين؟

اختَنَقتُ وتلوَّثَت رئَتاي بِهواءٍ مُلَوَّث

بِغُربةٍ آمُلُ ألاَّ تكونَ أبديَّة.

كَأنِّي لستُ حيّاً!

غادَرَتني روحي مُرغَمةً

أبَت إلاَّ رحيلاً بعيداً

غريبةً عنِّي، ترَكَتني!

وحيداً بين ظُلماتِ الحياة، أبقَتني

لَوَّحتُ يوماً لِسماءٍ ليسَ فيها سوى

غيمةٍ سوداءَ غليظَةَ المظهر

أمطَرَت فوقي نيراناً ودماراً

وأطاحَت بي تحت أنقاضِ اليأس

أختَنِق ساعةً، وأموتُ حيناً

وكأنِّي في عالمٍ كلُّه دمار

وكأني لستُ حيّةً، وكأني أتجَرَّعُ من الحياةِ، سُمّاً!

حنين

يحكُمُنا حنينٌ لِوطنٍ يعيشُ فينا ولا نعيشُ فيه

يحكُمُ قلوبَنا وأرواحَنا شوقٌ لِياسَمينٍ مُعَتَّقٍ يَعرُشُ على جُدرانِها المُقدَّسة

تُعيقُ سعادَتَنا مسافاتٍ طِوالٍ تُبعِدُنا عن حاراتٍ قضينا طفولتَنا فيها

ويُعطينا إيمانُنا أملاً بِأنَّ تلكَ المسافات لا بُدَّ أن تُقهَرَ يوماً ونعودَ إلى وطنِنا

وطن السَّلام

وطنٌ مكسور

تَبعثَرنا جميعاً في هذا العالم الواسع

ذهَبنا إلى أماكِنَ لم نكُن نحلُم بأن نصِلَ إليها

ليسَ بإرادَتِنا، تلكَ إرادة حربٍ قتلَت كُلَّ ابتسامةِ أملٍ فينا

جميعُنا خسِرَ الكثير، وعانى من الكثير

وذاكَ الوطن يقِفُ هناكَ مُتَفرّجاً، مصدوماً، ومدهوشاً!

ونحنُ داخِلُنا تائه، مُتفاجئ، تَعِبٌ، ومكسور

والوطن مُنهارٌ، مجروحٌ، ومقتول!

مقتولٌ بِحجمِ الطُّفولة المسروقة

مقتولٌ بحجمِ خيبةِ أُمٍّ مقهورة

مقتولٌ بحجمِ أوجاعِ شعبٍ غاب عنه السلام!

دِمَشقِيَّةٌ أنـا

دِمَشقِيَّةٌ تُحاكي وطناً بعيداً بِالمسافة

وطناً يعيشُ داخِلَها كَياسَمينَةٍ تأبى أن تذبُلَ أو تموت

دمَشقِيَّةٌ أنا صار الحنينُ صديقيَ الوحيدُ في الغُربة

وطني هو حُلُمي الوحيدُ الذي لا حُلُمَ بعدَه

حُلُمي الذي ماتَت جميعُ ما قبلَهُ من أحلامٍ بِبُعدِه

دِمَشقِيَّة وربِّي معي

مؤمِنَةٌ بِأنَّ العودَة قريبةٌ بِإذنِه

دِمَشقِيَّةٌ مليءٌ قلبي حُبّاً، عِشقاً، شَوقاً

شَغَفاً لِدِمَشقَ لا سِواها!

ينقصُني روح

أنا منكِ مدينتي

مجبولةٌ من هواكِ

معجونةٌ بحبكِ

أنا منكِ

وأنتِ فيني

داخلي، أخذتِ مكان الروح

في غربتي ينقصني روح!

لِدِمَشق

لِدِمشقَ أكتُبُ كلِماتي

وأجمَعُ حروفي

وأُغنِّي أُغنِياتي

لِدِمَشقَ فقط

يَطيبُ ليَ الغِناء

لِدِمشقَ

نَثَرتُ حروفي عِشقاً

وكلِماتي هِياماً

وقصائِدي حنِيناً

لِدِمَشق

أبعَثُ سلامي

وقُبُلاتُ ألفِ مُشتاق

وكُلَّما ذكَرتُ دِمشقَ عَشِقتُها ألفاً غيرَ التي قبلاً!

والحُبُّ لِدِمشقَ عِشقٌ فاقَ كلَّ درجاتِ العِشق

حكاية شتاء

حِكاية طِفلة

وُلِدَت طفلَةً مُختَلِفة، ضعيفة، ومريضة

وُلِدَت على وشَكِ النِّهاية، لكِنَّها لم تنتَهِ!

كانَت مُتَشَبِّثَةً بالحياةِ رُغمَ صُعوبَةِ وَضعِها وخُطورَتِه،

مُتَشَبِّثَةٌ بالحياةِ رُغماً عن تلكَ النِّهايةِ التي كانَت تحومُ حَولَها كُلَّ حين!

رُغماً عن مُحاوَلَةِ القدرِ بِسَحبِ أوكسيجينِ هذا الكوكَبِ عنها،

والتَّلَذُّذِ بِمُشاهَدةِ اختِناقِها وازرِقاقِ جسدِها الصَّغير،

رُغماً عن تَسَبُّبِهِ بِضَعفٍ كبيرٍ بِعَضلاتِ أطرافِها أَوصَلَها حدَّ

اتِّفاق الأطِبَّاء بأنَّها لن تَمشِيَ يوماً!

وَرُغماً عن قرارِ أُمٍّ لاذَت بِالفِرارِ من قَدَرِ طِفلَتِها المحتوم

تَركتها وَحيدَةً تُعارِكُ قَسوَةَ الحياة منذُ أيَّامِها الأولى

لم يكُن هناكَ سِوى أبٍ مَصدومٍ مِما حدث،

طِفلَةٌ مريضَةٌ على حافَّةِ الحياةِ، تَستَنجِدُ عطفًا!

وأُمٍّ لا تَصلُحُ لِأن تكونَ أُمّاً، تُكمِلُ طريقَها تارِكَةً خلفَها حياةً ترفُضُ الاستِسلام

بِدونِ أن تَلتَفِتَ إلى الخلفِ أو حتَّى تسأل عنها ولو من بعيد!

طِفلَةٌ بِأيَّامِها الأولى وحيدة، ومُحاطَةٌ بِالمخاطِرِ من كلِّ جانِب

وجدَّةٌ طيِّبةٌ أَبَت إلاَّ أن تكونَ المُنقِذَ واليدَ التي ستُساعِدُ في بقاءِ الطِّفلة،

وتُمسِكُ بِيَدَيها الصَّغيرَتَينِ لِتَعيش!

حَمَلَت على كاهِلِها أمر الاعتِناءِ بها وأخذِها للمستشفى كُلَّما باغَتَها الخطَرُ لإنقاذِها

لم يكُن الأمرُ سهلاً أبداً، ولكِنَّ اللهَ زَرَعَ عَزماً وقُوَّةً لدى الجدَّةِ لِتَمُدَّ طِفلَتها بالأمانِ والحنانِ والرِّعاية.

استجاب القدرُ لحاجة الطفلةِ ورَحِمَ الجدةَ من العناء من أجلِ طِفلَتِها

فقد كُتِبَ أخيراً أن يكون لها أُمّاً بِكُلِّ ما تحمِلُهُ الكَلِمةُ من معنى!

بِكُلِّ ما يحمِلُهُ الكونُ من حياةٍ وحُب!

كانت الحياةَ التي أكمَلَت مَسيرَةَ الجدَّةِ مِن أجلِ أن تعيشَ الطفلة وترسُمَ لها ابتِسامَةً

تبقى برفقتِها كالاسمِ طُوال حياتِها.

وكأنَّ الله يبعَثُ بِأشخاصٍ هُمُ الأمل لِتنمو زهرةً مِن وسَطِ شوكٍ صبَّارَةٍ

قاسيَة وجافَّة!

تِلكَ الزَّهرةُ هي "أنا" التي خَرَجَت لِتُثبِتَ لِلعالمِ أجمَع بِأنَّ الضَّعفَ

ليسَ سِوى وهمٍ حقيرٍ سَيَتلاشى بِمُجَرَّدِ أن يُقهَر

وتِلكَ الجدَّةُ هي جدَّتي التي لم تَترُك القدرَ يَنالُ مِن وِحدَتي و مَرَضي

هي جدَّتي التي كانَت أوَّلَ من أمسكَ بِيَدَيَّ الصَّغيرَتَين لِأعيشَ ويكونُ

لي وجودٌ على هذا الكوكب.

وتِلكَ هِيَ أمي التي أوصَلَتني إلى ما أنا عليهِ اليوم وقد ذاقَت المُرَّ بِذلك

بِفضلِ اللهِ وحُبِّها وصبرِها وإصرارِها على أن أكونَ شيئاً!

مَشَيتُ أولى خطَواتي وتعَلَّمتُ وأصبَحتُ كاتِبة بفضل الله الذي ألهمها الصبر على تعليمي وتشجيعي الدائم،

وبفضل حبها الكبير الذي ملأت حياتي به!

وذاكَ هو أبي الذي لم يترُكني أتخلَّى يوماً عن حُلُمٍ رَغِبتُ به

كانَ الدَّاعِم الأوَّل لِكُلِّ ما تَمَنَّيتُه وحقَّقتُه

هوَ صاحِبُ الابتِسامةِ العميقَةِ التي تُنبِتُ في قلبي زهراً

وتِلكَ الرَّاحِلةُ بِلا عَودةٍ!

ليسَت بِشيءٍ سِوى أنَّها هارِبةٌ من قدرٍ كُتِبَ وقُضيَ

لا أحد يستطيعُ الإنكارَ بِأنَّها سببُ وجودي ولا حتى أنا

ولكن ماذا عن ما أنا عليهِ الآن؟

مَن أوصَلَني إلى هُنا؟

ومَن شَهِدَ ألمي وانكِساراتِ روحي؟

من سمِع شكواي الدَّائمة من بشَرٍ لم يروا شيئاً فيَّ سِوى مَرَضي،

ولَم يُعطوني سِوى نَظَراتِ شفقةٍ واحتِقارٍ تَفتِكُ بقوَّتي وأملي وروحي؟

مَن احتَضن ضعفي وسَمِع بُكائي ومسَحَ دموعي؟

من زرَعَ فيَّ ثقةً وملأ قلبي أملاً، وعلَّمَني الحروف وترتيبَ الكلِمات؟

مَن ذاك الذي تَعِبَ وصبَرَ سبع سنينٍ حتى استَطَعتُ الوقوف على قدَميَّ؟

مَن أعطاني حُبَّ الكونِ كُلِّه وأغناني بِوجودِهِ عن الكونِ كلِّه؟

من فعلَ كُلَّ ذلك؟

مَن سِوى امرأةٍ تَحدَّت كلَّ الظروفِ لِأكونَ أنا ابنَتَها وهي أمي!

مِنَ المُؤَكَّدِ بِأنَّ أمّاً تَخلَّت منذُ الأيامِ الأولى عن طفلَةٍ تتَهادى بينَ الموتِ والحياة،

طِفلَة عاجِزةً يئِسَ من خلاصِها الغالبيَّة من الأطباء،

لن تفعَلَ كلَّ ذلكَ لِتَهِبها جزءً من الحياة التي وُلِدَت بِدونِها!

ولن يَكونَ يوماً لها يَدٌ بِما أصبَحتُهُ وما سأكونُه يوماً

مَن لم يَتقبَّل وجودي بضَعفي وسوءِ صِحَّتي منذُ البِداية،

كيفَ سأتقَبَّلُهُ بعد أن تخَطَّيت كلَّ ذلِكَ بِدونِ حتى توَقُّعِ وجوده يوماً؟

بعدَ أن تعلَّمتُ كيفَ أدوسُ على الضَّعف وأُنكِرَ تَصرُّفات

من تجاهل وجودي ومشاعِري وأفكاري

وبعدَ أن تعلَّمتُ أن أكونَ أنا الآن!

صداع حائر

كثيراً ما تَضَعُنا الحياةُ بينَ اختياراتٍ صعبة

تُغرِقُنا في كثيرٍ من الحَيرَة، وشَيءٍ من الضَّياع،

وأشياءَ من الخوفِ الذي يُحَطِّم داخِلَنا اندِفاعاً كُنَّا نتسلَّحُ به

أو ذاكَ الشَّيء الذي يجعَلُنا على قيدِ الأمل!

حلُمتُ ذاتَ سعادَةٍ بِأني عصفورٌ يُحَلِّقُ فوقَ واقِعِهِ ينظُرُ من أعلى مُستَهزِئاً:

((لقد تحرَّرتُ من قيودِكَ أخيراً!

بِتُّ الآنَ أراكَ صغيراً جداً كنُقطَةٍ تكادُ لا تكونُ شيئاً))

لم أنتهِ من حُلُمي بعد!

صَحَوتُ منهُ فجأةً على أصواتِ ضجيجٍ صاخِب

وأنا وحدي أقِفُ على مُفتَرَق طُرُقٍ كثيرةٌ مُتَشَعِّبة،

وكثيرٍ من الاختِيارات والقرارات الصَّعبة المَشكوكِ في أمرِها!

ثَمَّة طريقٌ يَخُصُّ ماضٍ لي كادَ أن يموتَ مع الزَّمن

لا رغبَةَ لي بِأن يتدَخَّلَ أحَدٌ بِقراري النِّهائي بِشأنِه، لِأنَّ القرارَ محسومٌ أصلاً!

لكن، لماذا قَرَّرَ القدَرُ وَضعي أمامَ هذا الطريق الآن بالذَّات؟

ثَمَّةَ شيءٌ غريبٌ بِظُهورِهِ في هذا الوقت حصراً

ثَمَّة حلقَةٌ أَوَدُّ إيجادَها و فَهمَها والاقتِناعَ بها

غارِقةٌ تلكَ الحَلَقَة بين الأعذارِ المُتناثِرة على جانِبَي الطَّريق،

كما أنا الغارِقةٌ بين إشاراتِ الاستفهام الكثيرة وأكوامِ التَّساؤلات المُحَيِّرة

أرغَبُ بِالحُصولِ على الحقيقةِ وليسَ سِواها!

جميعُ تلكَ الأعذارِ والهدايا لن تؤَثِّر على رَغبَتي بالوصولِ لِأجوِبَةٍ مُقنِعة

ليتهم يُدرِكون ما فعَلوهُ بي، لكنَّهُم لا يُدرِكون سِوى أنِّي فتاةٌ قاسِية!

ولَستُ قاسِيةً أبداً، بل أنا بِحاجَةٍ لِأن أعلَمَ سببَ تَذَكُّري فجأةً بعدَ عَقدَينِ ونِصف من عمري!

عَنيدة أنا بِطَبعي ولا يُغَيِّرُ رأيي سِوى ما أريدُ الوُصول إليه.

ثَمَّة طريقٌ آخَرَ يخُصُّ حاضِراً مُبهَماً كُتِبَ على لافِتَةٍ في بِدايَتِه

((قد تكون الحياة هنا وهماً أو خيال

حلُمُكِ هُنا، لكن ليسَ من حقِّكِ الحُصولُ عليه!

إمَّا مُجازَفَةٌ تَليها خسارَة

وإمَّا هُروبٌ يَليهِ ندَمٌ وحسرة))

أتأمَّلُ تلكَ اللوحةَ كثيراً وأدخُلُ دوَّامَةَ أفكارٍ لا تَمنَحُني سوى

ضَوضاءَ عارِمة من فِعلِ كلِماتٍ واحتِمالاتٍ تتقافَز بين تلافيفِ دِماغي

تُدخِلني في نَوبَة صُداعٍ حائر!

هي أمي

عِندَما أكتُبُ عن أمي فأنا أَقصِدُ امرَأةً تَعِبَت و شَقَت من أجلي

عن امرَأةٍ تَقَبَّلَتني بِكُلِّ ما فِيَّ لِأكونَ ابنَتَها التي لم تَلِدها مِن أحشائِها!

عن امرأةٍ أغرَقَتني بِحُبّها وحنانِها ودلالِها ولم تُفَرّق بيني وبينَ أولادِ بطنِها

عن امرَأةٍ كانَت ومازالَت أمّي بِكُلِّ ما تَحمِلُهُ الكَلِمَةُ من معاني

على الرغمِ مِن أنّي لم أكبُر في رحِمِها!

عنِ امرَأةٍ هيَ كلُّ حياتي

هي أمي التي عَلَّمَتني فَنَّ الكِتابَةِ والحياة

فكيفَ لا أعشَقُها وتكونُ لها الكلِمات؟

حضن أمك

عِندما تَضيقُ بكَ الدُّنيا وتُغلَق الأبوابُ في وجهِك

وتُحاصِرُكَ الحياة بِمفاجآتِها الكثيرةِ والغريبة

وفي الغالب تكونُ صادِمة!

عِندها لن تَجِد ملجأً سِوى حضنُ أُمِّك!

تلكَ المرأةُ التي تَفهَمُ انكِساراتِك بِدونِ أن تُخبِرها بشيء

والتي تَفُكُّ شيفراتِ حُزنِك

وتقرأُ صمتك دون أن تَنطِق

والتي بِمُجرَّدِ أن تضعَ رأسَكَ في حضنها

لِتَبدأُ يداها الطَّاهِرتان بِمُداعَبَة شعرِك بِحنانِ الكونِ كلِّه

حتى تستَرخي وتستَسلِم لِنِدائها الصامِت لِأن ترتاحَ

وتكُبَّ عنكَ حُزنَك

فَتَشعُر بأنَّكَ غادَرتَ عالمَك إلى عالمٍ مليءٍ بالأمان

ولا شيء سِواه!

لكِ أمي

"أمي"

ما كُنتُ سأكونُ كما أنا، لولا وُجودِكِ في حياتي

ما كانَت سَتَرتسِمُ على شَفَتَيَّ ابتِسامة لو لم تقومي بِرسمِها لي بِيدَيكِ

ما كنتُ سأُحِبُّ الحياة وأكونُ أقوى وأصِلَ إلى ما وصَلتُهُ الآن

لو لم تكوني أنتِ معي!

أمي..

يا مَلاكاً يعيشُ بين البَشر

جميعُ كلِماتِ الشُّكر والامتِنان والحُب لن تُساوِي شيئاً أمامَ ما قدَّمتِهِ لي!

أنتِ نِعمَةٌ أشكُرُ الله علَيها صباحَ مساء

ماذا لو كنتُ أمي؟

لو كنتُ أمي؟

لفعلتُ كما فعلَت تماماً

وضمَمتُ طفلةً مريضةً تتهاوى بين الحياة والموت،

لم يتفانى القدَرُ في تعذيبِها منذ النفس الأول لها في هذه الدنيا!

سلبَ أوكسيجين الدنيا عنها ولَوَّن جسدَها الصغير بالأزرق حتى أنه تمادى بها بأن واجَهَت الموت منذ أيامِها الأولى،

وكان مِن نصيبِها أن تعيش أشهُرَها الأولى بِلا أُمٍّ ترعاها!

لو كنتُ أمي؟

لفعلتُ مِثلَها تماماً وعاهَدتُ الطفلةَ بأن أكون أمها طيلة العمر

وعاهَدتُها بأن أخلُقَ من ضعفِها قوةً وأُسلِّمُها كافةَ الأسلِحة لِتُواجه هذا العالم البائس بِظلمه!

لو كنتُ أمي لَصَمَمتُ أذُنَيَّ عندما ثرثرَ الأطِبَّاء بأنَّ هذي الطفلةَ لن تقِفَ يوماً على قدَمَيها ولن تمشي خُطوةً واحدة،

وبَقيتُ أُجاهِدُ بكلِّ ما فيَّ من قوَّةٍ وإيمان حتى أُثبِتَ بأنَّهم مُخطئون لِمدَّةِ سبعِ سنواتٍ بِدونِ يأسٍ أو ملل حتى مشَت!

لو كنتُ أمي لفعَلتُ كما فعلَت تماماً

بأن أجعلَ الكتابةَ نافِذةَ أملٍ تتحدَّى بها الطفلةُ كلَّ ما تُواجههُ من ألم وقهرٍ تلك العيونِ المُشفِقة،

والقلوب التي لم تتقبَّل اختِلافها وضعفها، تلك العقول التي اعتقدَت دوماً بأن ضعف جسدِها مُرتبِطٌ بعقلِها وتفكيرها!

وما علِموا بأنَّ عقلها هذا يفوقُ توقُّعاتِهم، وقلبُها يُغطي قلوبَهم جميعاً!

لو كنتُ أمي لَفعلتُ كما فعلَت تماماً

حينَ انحنى ظهرُ طفلتِها مُعطِياً إياها مظهراً غريباً يَلفِتُ انتباه الناظرين لِتشَوُّهٍ خُلُقي واضح!

ولِلأسف أكثرُ أولئكَ النَّاظِرين كانوا ساخِرين!

لأخبرتُ الطفلةَ بأنَّها مميَّزة وجميلة بِنظري وعِند الله هي الأنقى قلباً

لَعلَّمتُها فنَّ التجاهُلِ والابتِسامةِ في وجوهِ الهازئين

لأخبرتُها بأنها رائعةٌ بكلِّ ما هي فيه ومُختلِفةٌ أيضاً!

لَجعلتُ من أحلامِها حقيقةً ومدَدتُها بكلِّ الثقة التي تحتاجُها كي تُكَوِّن ذاتها

لو كنتُ أمي لفعلتُ ما فعلَت تماماً

حينما ظهرَت من كانَت السَّبب بِوجودِها بعد أربعٍ وعِشرين عاماً لِتُخبِرها

"أنا أمُّك"

لَعلَّمتُها التسامُح والمغفِرة وتقبُّلِ الواقِع الجديد كما هو

لو كنتُ أمي لجعَلتُني حقيقةً على هذا الكوكب كما أنا الآن زهرةُ صبَّار قاوَمَت كلَّ شيء حتى كبُرَت وشاعَ اسمُها بين الملأ

وليتني أكون كأمي فمِثلُها لن يكون!

لماذا نكتب؟

نَكتُب لِنُفرِغ ذاكِرَتنا من علَقاتِ الماضي المُتَلَبِّسِ بِنا وبِأحلامِنا كالعلَقة

نكتُب لِنصنَعَ عالماً من حياة نرتاحُ به من عالمٍ ما عاد يصلُحُ لِلعَيشِ بِسلام

لأني بالكتابة أحيا

أكتُب لِأجمع شتاتي المنثورِ ما بين وطنٍ مقتولٍ وغربةٍ قاتِلة

لأُواري سوءةَ مُجتمعٍ ما عادَ يعرِفُ السلام أو أنه بات يتجاهله

لأشهَقَ بانتصارٍ لِتغلُّبي على ضعفي بإعطابِ كلِّ عينٍ تتهامسُ عن بشاعةِ جسدي أو اسمِرارِ بشرتي

لأقول بِصوتٍ يكادُ يصدَعُ الكون:

"نعم للإختلاف"

"نعم لِلسلام"

"نعم لِوجودِكَ بجانبي وطَناً يُهَوّنُ عليَّ منفاي"

أكتُبُ لأتحدَّثَ بِألسِنَةِ تلك البطونِ الجائعة وطفولتِها المغتَصبة

لِأقول لِكُلِّ مُخادِعٍ مُتخاذِل بأنَّكم لن تلمِسوا السماءِ بكذِبِكم.

أكتُبُ لِأجلي!

لِأتنفّس الحياة عِشقاً وسعادةً

لأعيشَ حلُماً جميلاً ما زال يُدغدِغُ خيالي كل لحظة وكلِّ ثانِية

أكتُبُ لأني بالكِتابةِ أحيا

ظِــل

وأنا جالِسةٌ أُحصي سِنيني التي مَضَت

علِمتُ بأني لم أكُن فيها سِوى ظِل!

وتَيَقَّنتُ بأني لا بُدَّ لي مِن أن أتحرّرَ منه

لِأكون أنا

لَحنُ أمل

سأبقى أعزفُ أملاً حتى ينبُتَ الزَّهرُ في قُلوبِ البائِسِين

أن تكون مميَّزًا يعني أن تكون مُلهِمًا

كونكَ مختلِفًا ستكون جُلُّ العيون عليك بجميع أنواعها، المُشفقة والمُتعجِّبة والكارِهة والمُحِبة ربما، سيكون عليك مواجهتهم جميعًا، أو الاختباء في الحجرات المغلقة والعوالم المظلمة.

سيبدو الخيار الثاني أسهل في الظاهر ولكن حتما ورغم صعوبة الخيار الآخر سيكون الأمتع، لأنه يعني التحدي والقوة، لأنه يحمل بين طياته الإصرار والرغبة في إثبات الذات.

في الحقيقة ولِأكون صادقة أمام نفسي أولاً، وأمامكم

اخترتُ في البداية الخيار الأول، اختبأت وأغلقتُ على نفسي!

هربتُ من أعيُنهم، واستفزتني تصرفاتهم حال رؤيتي، وقتلني تجاهلهم.

كنتُ كائنًا لا مرئيا لدى البعض، ومؤذيًا للأعين بالنسبة لِآخرين!

كنتُ وحيدةً في الظلام.

لم يكن لدي حلمٌ في ذاك الوقت، لم يكن بيدي سلاحٌ أُحارب فيه!

الحلم بمثابة السلاح الذي تقاتل فيه الظروف والصعاب لتصِل، ولِتُثبت لِنفسك قبل كل شيء بأنك تستحق العيش في هذا العالم، تستحق الوجود والاهتمام والاحترام!

إنسان كالجميع، وأنَّ اختلافك ما هو إلا نقطة تُميّزكَ عن جميع النسخ المُتماثلة.

أن تكون مميزًا يعني ذلك تمامًا أن تكون مُلهِمًا، وأن تكون ملهِمًا يعني أنك تملك من القوة ما يُمحي أي لمحة ضعفٍ داخلك.

تجرَّأتُ على اختِلافي وأمسكتُ سلاحي -حلمي- بأن أصبح كاتبة

أنثر الأمل والإلهام داخل قلوب القارئين، ومضيتُ بِكامل إرادتي وبِكل حبّ، مُتجاهلةً أي نظرةٍ تُنقِصُ من عزيمتي مُتحدِّيةً إيَّاها بابتسامةٍ تُخجِلُ وقاحتها.

تجرَّأت وكنتُ وسأبقى اليد التي ستُمسِكُ أيادي الخائفين المختبئين في الظلمات لأمضي بهم نحو الأمل والحياة.

لا حياة في الظلام، ولا أمل بلا فتحةٍ ينبعثُ منها النور.

فأيًّا كان اختلافك تقبله على أنه ميزةٌ منحها الله لك لتكون رسالة إلهامٍ

واسمح للنور أن يدخل قلبك حتى تصبح أنتَ النور لحياةِ أحدهم.

تعلمتُ من الأمس أن أُجازف وأتحدى ذاتي بأيِّ أمرٍ يصادفني حتى أصِلَ للسعادة التي ستغمرني لحظة الوصول للنجاح، مهما كان الأمر صعبًا لا بدَّ أن أجتازه بجدارة، الحياة تستحقُّ المغامرة.

الكتابة حياة

الكتابة لك بمثابة الأمل الذي يحملني بعيدا حيثما للحكاية معنًا وأثر

الكتابة تُمكِّنني من فعل المستحيل حينما أقف وتقف بي الحياة عاجزة عن إعطائي المزيد.

الكتابة فعلٌ صامتٌ أفعله بيني وبيني، أخلو به عن الجميع بذاتي وأهرب بها حيثما لا أحد سوانا

هدوء مُطبِق وأملُ جديد قد يولد من العدم!

لي مع الحكايات عشقٌ نما معي إلى أن وجدتني كبيرةً فجأة

لا زلتُ أحب الحكايات، ولم أزل أكبر وأتضخم إلى أن تلاشيت

أنا اللاشيء

حكاية مبتورةُ النهاية

مشوهة البداية

عديمة الفائدة وبلا أثر

أنا السكون المطبق الذي خيَّم على العالم فجأة

أنا العدم الذي أرهق نفسه في إثبات أنه شيءٌ يُذكر

لم يلتفت إليه أحد، ولم يسمع همسه أحد

لأنه العدم!

لا أحد يستطيع الهرب من العدم

لا أحد يستطيع الهرب من اللاشيء

لا أحد يستطيع الهرب من الموت!

أنا الموتُ إذن وبالكتابة أتحول للحياة!

الحِكمة ضالتي

قبل أن يتسلَّل اليأس إلى قلوبكم المتعبة، ابحثوا عن الحِكمة!

لطالما كانت الكتابة اليد التي انتشلتني من وسط الضياع والغرق بين تساؤلاتٍ عميقةٍ لا إجابات لها لأنها ولسببٍ ما، لها علاقة بالقدر الذي كُتِب في الصحائف قبل أن نولَد!

وحده الله الذي خلقنا يعلم إجابات كل تلك التساؤلات، وربما قد يجعل إحداها يُصادف طريقنا فنعرف تلك الحكمة الجميلة من كل ألم.

كنتُ كثيرة البكاء من هيئتي، وبُطء حركتي، واختلافي، بل كانوا ثلاثتهم كالشوكة التي تغرز في حلقي فتمنعني من التنفس والتنعم بالحياة!

لم أكن أعرف ما المغزى؟

"لكل شيء في هذه الدنيا حكمة من وجوده"

جملة كثيرة الورود أمامي، بيد أنها كانت صعبة الفهم ليس لأني ضعيفة بذلك،

بل لأني لم أحاول إلقاء ولو نظرةٍ واحدة بين ثناياها!

أحيانا تُبعدنا أفكارنا السوداوية عن رؤية بصيص الأمل في الأشياء من حولنا، فلا نرى إلا الظلام!

أذكر أني لطالما تكورت على نفسي وغرقت في السواد المبلل بالدموع، لطالما كان إغلاق أبواب التواصل معي من قِبَل الأشخاص الآخرين يكسرني ويرمي بمحاولاتي بين فُتاتِ القِطع المنثورة مني،

تجاهلهم لي ولأفكاري، وجعلي لا مرئية في هذا المكان كان يُكَثِّف الظلام من حولي أكثر فأكثر،

ويُبعدني بل ويفصلني عن عالمهم فصلًا تامًّا

كانت الوحدة تفتح لي أبوابها وكنت أخافها إلى أن أُوصِدَت الأبواب بوجهي، وجدتني باللاشعور أسيرُ إليها جارَّةً خلفي ذيول خيباتي وآلامي باستِسلامٍ تام.

لم أعلم أنها ستكون الحضن الحنون الذي سيلفني بحبٍّ بعيدًا جدًّا،

لم أكن أعلم أني سأجد برفقتها ضالتي.

قلم و بضعة أوراق خربشتُ عليها كلماتٍ كانت النجاة بالنسبة لي.

لم أتخيل حجم الخِفة التي سأشعر بها بعد كتابة ما يُثقِل روحي، لا وصف له

لِذا لم أتوقف أبدًا من تلك اللحظة حتى الساعة.

وكذا علمتُ الحكمة التي كنتُ أتساءل عنها في الماضي:

"إلهام الآخرين وإهداءهم الأمل على طبقٍ من كلمات"!

المحاولة بالتخفيف عن آلامهم بملامسة قلوبهم برفقٍ ورقة، زرع الحب بأرواحهم وبين شرايينهم..

تحفيزهم ورفع هممهم لإكمال الطريق للنهاية حيث النجاحات والفرح.

لم أعلم يومًا أن الكتابة ستحوّلني من مخلوقٍ ضعيف لا مرئي إلى نجمةٍ لامِعة برَّاقة تحمِل من الأمل ما يُواري ضعفها خلف ملامحِ الشغف بعينيها.

سأُشرِقُ يومًا

يومًا ما..

سأُشرِقُ من جديد

ستتبدَّلُ ملامِحي المُتعبة لِملامِحِ الفرح

ستطيرُ من عينَيَّ السَّوداوَتَين شراراتِ الفرحِ اللاَّمِعة

وسأتغيَّرُ لِأكون غيري

لِأكون تلكَ السَّاكِنة بأحلامي

تلكَ التي لا يعرفها سِواي

ولن يعرِفها أحدٌ ما دامَت داخلَ خيالاتي

يومًا ما ستطولُ قامتي أكثر

وستختفي صخرتي التي أرهقَتني

وسأركضُ بِلا خوفٍ أو قيود

سأركضُ مِلءَ إرادَتي

وبِحجمِ ما تمنَّيتُ ستكون بهجتي

سأضحكُ حينها كما لم أضحك يومًا

ستغمُرني الفرحة حدَّ الغرق

ولن أتوقَّف عن الركضِ أبدًا

لن أتعَبَ ولن أسمحَ بالتعبِ أن يُظهِرَ نفسه

أو يُبدي بملامحه البائسةِ عليّ

حينها أنا من سيُقرر لا هوَ!

سأعود طفلةً بعمرِ السابعةِ مشَت لِتوّها

فلم تسعها الأرضُ من السعادةِ

وطمحَت أن تتحوَّلَ الخطوات المتأنِّيةِ البطيئةِ ركضًا

فبقي طموحها مُتوقِّفًا ينتظرُ أن يحين الوقتُ المناسِب

يومًا ما سيحينُ ذلك الوقت

وسأنطلِقُ بِروحٍ جديدةٍ مُشرقةٍ كما تُشرقُ شمسُ كلِّ يومٍ جديد.

تم بحمد الله